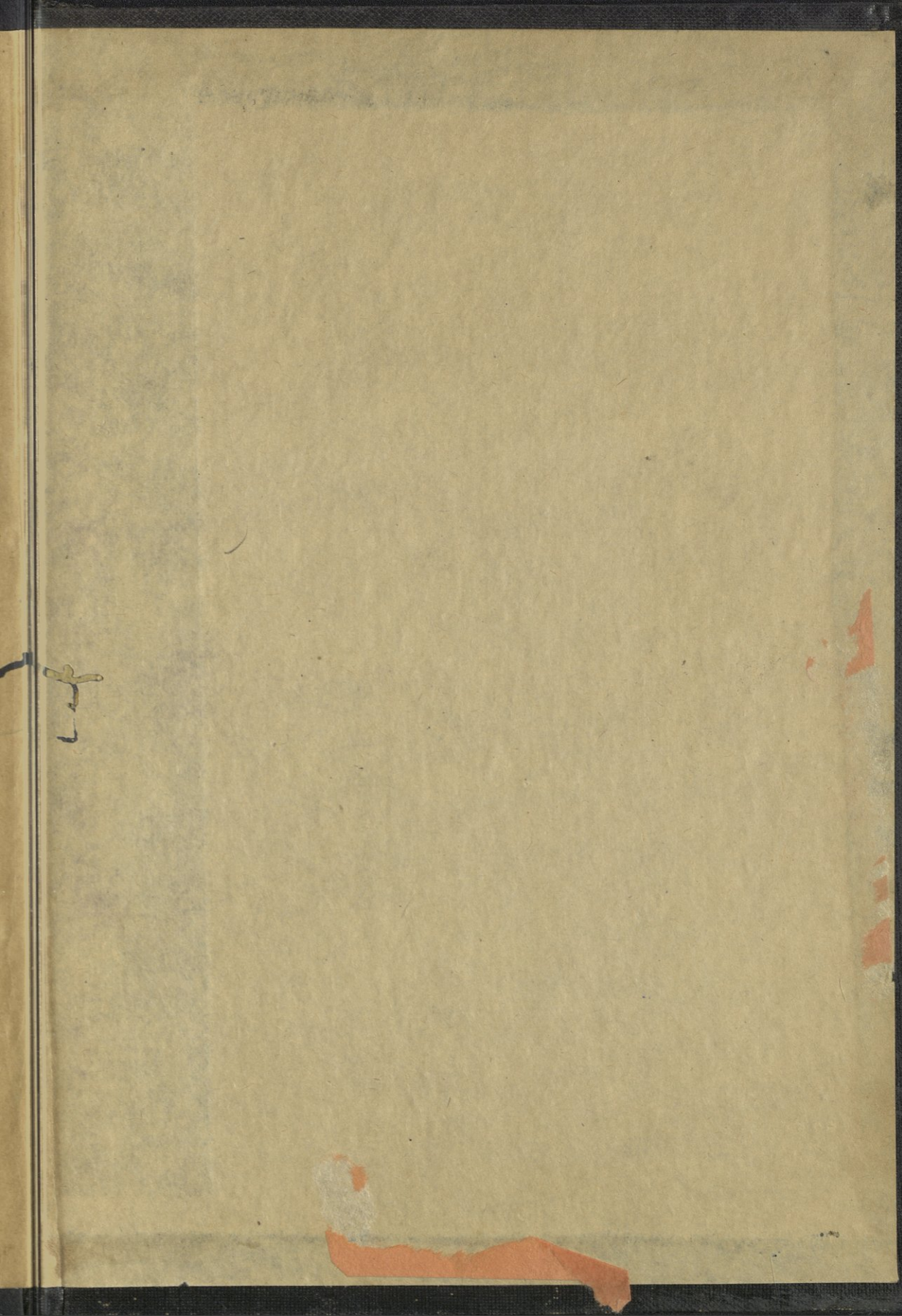
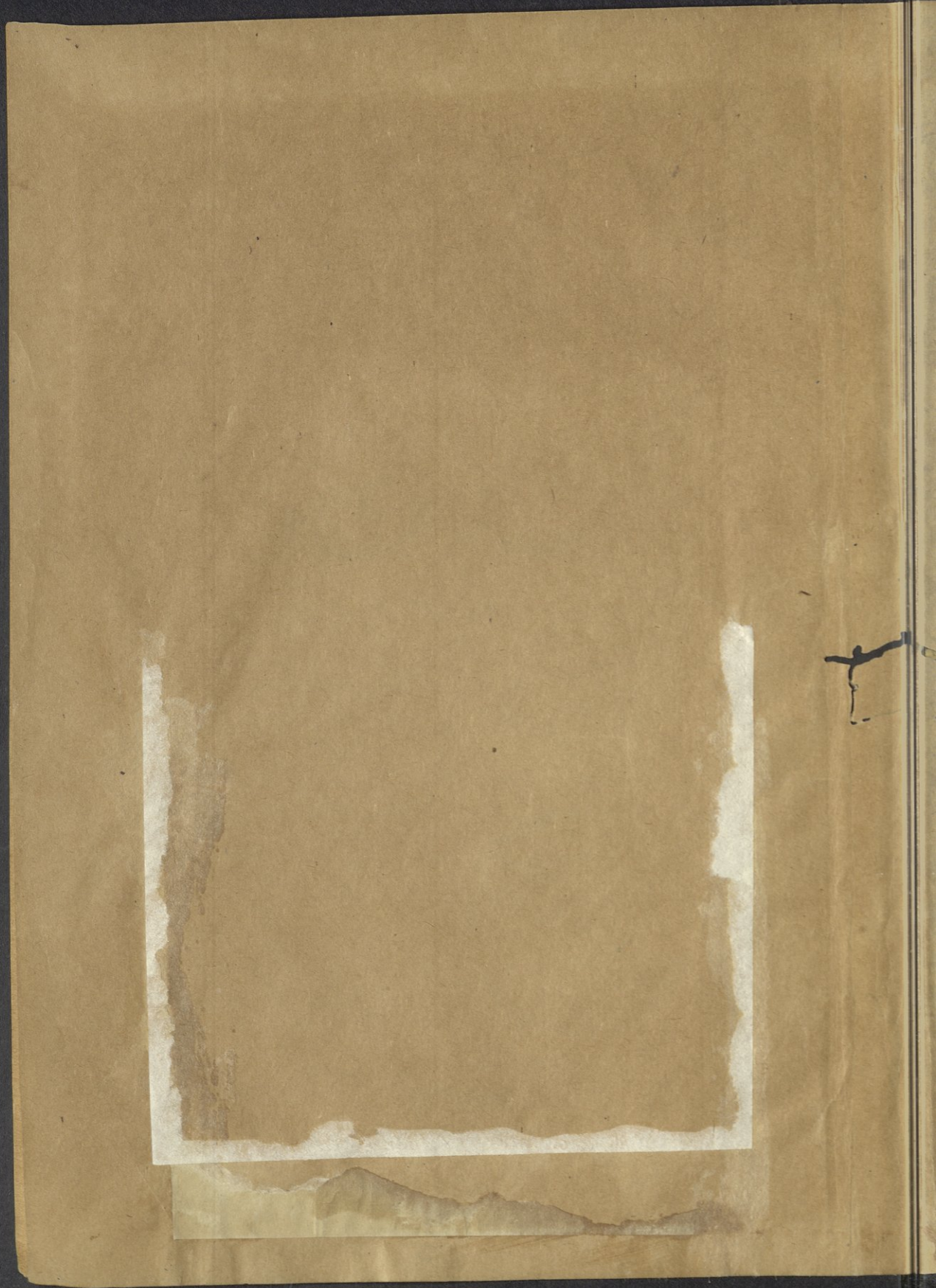














cat. June, 52



ابراهيم الابيكاري

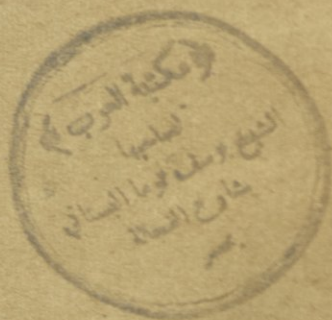
808.1

A161A

cat



# رسالة الشاعر



79044

طبع بمطبعات القطف والمطبعات

١٩٤٦

cat. June, 52



1830  
A.M.D.A.  
1830





# رسالة الشاعر

## تقديمته

الحياة أهداف ، والفلاح معقود بناصية ذوي الحرء ، ومع الجنف عن الجادة  
وخطب العشواء ، لا إلى غاية ، الأتحال والهُون .

لنقن ذلك الناهضون بأعباء الأمم ، فتبينوا مقاصدهم وعبّدوا السبل والمنافذ إليها .  
فانساب الناس فيها انسياب صغار الجداول ، لا تلبث أن تلتقي عن كثر في مجرى واحد .  
لم يخص الداعون ناحية دون ناحية ولا فعلاً دون قول ، ولا جدّاً دون لهو ،  
إلا جعلوا منه سبيلهم إلى منشود غايتهم .

هذا مع الوضع المرسوم ، والقصد المُرسى . أما مع التوزع والبليلة ، وفقدان المعالم  
والغايات ، فالأمور إلى شتات .

وتتميز أمة عن أمة ، وأولاهما قد استوت على قدميها ، والثانية لما تحسّ مكان القدمين  
من جسمها ، بقُرب الميزة من أهدافها ، وجمعها آحادها على مُرادها .

وإذا رأيت أننا لازلنا كايين على اليدين والقم ، فرجعُ الأمر في ذلك إلى أننا لنقنين  
إلى اليوم أغراضنا في جلاء ووضوح ، أو لأننا أضلّستنا السبيل إلى ما نريد .

\*

تحمل الألسنة في ذلك التوجيه الشيء الكثير ، بما يصدر عنها من قول ، يكون نثراً  
ويكون شعراً ، تتلقاه الآذان ، وتدعيه القلوب ، فتتقاد له وتهتدي بهديه .



والنثر والشعر ، وإن صدرا للقول وجماله ، وغبرا لترويح النفوس ونزهة الخواطر ،  
أو لغير هذا وذلك من لُسابات النثرين والشاعرين وأوطارهم - وأكاد أقول : حياة الأدباء  
خاصة - فيها لذلك الغرض الاجتماعي أجدر ، وبه أولى ، وعليه أقوى .  
وما أقمّن الأديب أن يعرف مكانه هذا من الصفوف ، إذ الناس غيره كلٌّ إلى جهد  
خاص معنيٍّ به ، لا يلتفت معه إلا في القليل لهذا المعنى الاجتماعي ، الذي به النهوض والسبق ،  
والذي سلاحه القول الجاذب ، واللسان الخالب .  
ويا كُثر ما نرى هؤلاء الذين تخلفوا عن الاتصال بالحياة الاجتماعية مستهملّ حياتهم ،  
سرعان ما يهبطون ، حين يجدون لهم بين أئمتهم مكاناً تهبأ لهم أسبابه ، فيؤدّبون ألسنتهم  
على القول ، وأقلامهم على الكتابة . وما يغيرهما يأخذ الناس عنهم ويصيغون لهم .

\* \* \*

يجمل الأديب حقّ أمره إذا ظن أنه لغير المجتمع يعيش .  
وينسى الأديب نفسه إذا لم يؤمن أن ماله في غير هذا فهو فرجة المضيق ، وتندّر  
المستلهي ، وإراحة المستروح .

\*

نريد أن نرى للأدب سيادة ، ولا سيادة للأدب إلا أن يعرف الأدباء أن مكانهم مع  
القادة والزعماء . ولن تنتهي إليهم مقاليد الأمور ، إلا إذا كانت لهم الصرخة الأولى ،  
والكلمة السابقة ، وعاشوا للمجتمع من حولهم ، ثم لفكرة ينفجحون عنها ، وكان لهم مع  
هذا إيمان وإقدام ، ثم نفوس كبيرة لا تباع ولا تشرى .

\*

هذه هي رسالة الكاتب أو الشاعر في الحياة . ولنا في الشعر كلمة ، إلى عودة قريبة  
سنقول فيها عن النثر أخرى .



## موازين الشعر

خضع الشعر لموازين ، هي مع الحاضر على غرارها في الماضي ، مع تلوين في الأسلوب ، وتحويل في الفكرة . ذلك عدا نظرات خاطفة جريئة جاءت على غير هذا النهج الموروث في قدر الشعر وتقويمه .

وقد رأينا قدامة بن جعفر في كتابه « نقد الشعر » ، والقيرواني أبا علي الحسن بن رشيق في كتابيه « العمدة » و « قراضة الذهب » ، وابن عبد ربه أبا عمر أحمد بن محمد في الزمردة الثانية من كتابه « العقد الفريد » ، والعسكري أبا هلال الحسن بن عبد الله في كتابه « الصنائع » . رأينا هؤلاء جميعاً ومن لف لفهم ، مع هذه الموازين لا يحجرون عنها ، فهم إذا نظروا للشعر نظروا إلى عروضه ووزنه ، أو غريبه ولطيفه ، أو معانيه ومقاصدها ، ثم مازوا بعد هذا جيسده من رديئه .

ذلك شيء ألقناه عنهم ، وتأثرناهم فيه ، مع خروج قليل على ما رسموه ، لا يقفنا منهم ببعيد .

وفي خلدي أن هذا الفن ، فن نقد الشعر ، قعّد قواعده الأولى الشعراء المتقدمون أولاً ، بما ثار بينهم ، ثم جاء العلماء في أعقاب الشعراء ، فجمعوا ما تناثر من ذلك وضموا إليه ما آخذهم ، ومن هذا وذاك كان هذا الفن .

\* \* \*

نقصد بما ثار بين الشعراء نحو ما كان بين امرئ القيس وعلقمة بن عبدة التميمي حين نزل علقمة بامرئ القيس ، وكان صديقاً له ، وتلاحيا أيهما أشعر ، وانتهيا إلى أن ينعت هذا فرسه وذاك فرسه ، وارتضيا أم جندب ، امرأة امرئ القيس . لتفصل بينهما . فقال امرؤ القيس :



خليلي مرأى بي على أم جندب      تقضي لبانات الفؤاد المعذب  
إلى أن قال :

فللسوط الهوب<sup>١</sup> وللساق درة<sup>٢</sup>      وللزجر منه وقع<sup>٣</sup> أخرج<sup>٤</sup> مذهب<sup>٥</sup>  
وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب      ولم يك حقا طول هذا التجنب  
إلى أن قال :

فأدركهن<sup>١</sup> ثانياً من عنانه      يمر<sup>٢</sup> كمر<sup>٣</sup> الرائح المتحلب  
فقال أم جندب لامرئ القيس : علقمة أشعر منك . قال : وكيف ؟ قالت : لأنك  
جهدت فرسك بسوطك وزجرك ، ومريته فأعنته بساقك . وأما علقمة فأدرك فرسه ثانياً  
من عنانه ، لم يضربه بسوطه ولم يتعبه .

\*

ومثل هذا ما كان بين النابغة وحسان بسوق عكاظ ، حين أنشد حسان النابغة :  
لنا الجففات الغر<sup>١</sup> يلعن<sup>٢</sup> في الضحى      وأسيافنا يقطرن<sup>٣</sup> من نجد<sup>٤</sup> دما  
ولدنا بني العنقاء وابني محرق<sup>٥</sup>      فأكرم<sup>٦</sup> بنا خلا<sup>٧</sup> وأكرم<sup>٨</sup> بنا ابنا  
فقال له النابغة : أقلت جفناك وسيوفك — لأنه قال : جففات ، وهي لأدنى العدد ،  
والكثير جفان . وقال : وأسيافنا وأسياف جمع قلة ، والكثير سيوف — وقال له : نفرت  
بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك — لأنه قال : ولدنا بني العنقاء وابني محرق . فترك الفخر  
بآبائه ، وفخر بمن ولد نسأوه .

\*

وقرب<sup>١</sup> من هذا وذاك ما كان من أهل المدينة حين قدم عليهم النابغة فأسمعوه على  
لسان قينة مغنية شعره الذي أقوى فيه :

سقط النصف ولم تترد إسقاطه      فتناولته واتقتنا باليد



بمخضّب رخص كأنّ بنانه عَمَّ يكاد من اللطافة يُعقد  
ومدت الجارية في الضربين صوتها . فانتبه ولم يعد الى ما وقع فيه .

\*

ويذكرون أن الذي هاج الشر بين جرير وعمر بن لجأ ، أن ابن لجأ حين أنشد أرجوزته  
التي يقول فيها واصفاً إياه :

تَجَرُّ بالَاهُون من إدنائها جرّ العجوز الثني من خفائها  
قال له جرير : أخفيت مرّها . قال : فكيف أقول ؟ قال : قل :

جرّ العروس الثني من خفائها

فقال له ابن لجأ : لقد قلت أسوأ من هذا . قال : وما قلت : قال : قولك :  
وأوثق عند المردفات عشيّة لحاقاً إذا ما جرّد السيف لامع  
فجعلتهن مُردفات غُدوة ، ثم تداركتهن عشيّة وقد نُكِرَحن .

\*\*\*

ذاك شيء مما عاب به شاعرٌ شاعراً ، أو تُرك الحكم فيه لغيرها يفصل بينهما . وقد  
رأيت لا يخرج عما أجملنا أولاً ، وأنّ الأمر فيه جرى على النسق المعهود .  
أما من ما أخذ العلماء على الشعراء ، فقد أدركوا على عمرو بن أحمَر الباهليّ قوله  
يصف المرأة :

لم تدر ما نسجُ اليرندج قبلها ودراس أخوص دارس متجدّد  
فقالوا : ظنّ اليرندج ، وهو جلود سود ، شيئاً يُنسج .  
وأدركوا على لسيّد قوله :

ومُقام ضيق فرّجه بمقامي ولساني وجدل  
لو يقوم الفيل أو فيّاله زلّ عن مثل مُقامي وزحل  
وقالوا : ظنّ أن الفيّال أقوى الناس ، كما أن الفيل أقوى البهائم .

وأخذوا على الأخطل قوله في رجل من بني أسد يمدحه ، وكان يُعرف بالقيسين ، ولم  
يكن قيسناً ، فقال فيه :



نعم المجير سماك من بني أسد      بالمرج إذ قتلت جيرانها مضر  
قد كنت أحسبه قيناً وأنبؤه      فالآن طيسر عن أثوابه الشرر  
وقالوا: هذا مدح كالهجاء .

وأخذوا على أبي نخيلة الراجز قوله في وصف المرأة :  
مُريّة لم تلبس المرققا      ولم تذق من البقول الفستقا  
تجعل الفستق من البقول ، وإنما هو شجر .

\* \* \*

هذا قيل من كُثر من ما أخذ العلماء على الشعراء ، وفيما أوردنا غنائه ، فكله من  
هذا وإليه .

على هذا جرى النقد وكانت هذه مادته . ولم ترَ جديداً عليه مع امتداد الزمن  
وانفساح الأجل .

وهذا لاشك جميل ، في ظله ضمان لسلامة الشعر ، وأمن من سقطات الشعراء ، ولكن  
ممثلنا في هذا مثل الجندي ، يقضي إلى الأمد المضروب له أيامه ، في حركات وسكنات ،  
ومن ورائه مؤدّبوه يمدّون عليه الهفوات ويمدّونه بالإرشادات ، ثم يعود إلى حيث  
أتى ، ولم تكتب له في صحيفته الحربية كلمة .

لقد حذق الجندي الكرّ والفر ، وأجاد أساليب الكفاح . ولكنه لم ينزل إلى ميدان  
يسجل فيه بتلك اليد المدربة ، والسيف المشحوذ ، عملاً يكسبه المجد والفخر .

نعني أن الشاعر ليس عند الإجابة ينتهي أمره ، وليس مع الإفصاح يبلغ كل شيء .  
هذا كله إعداد وتكوين ، وما رأيناه جاء من النقد جاء لهذه المرحلة وحدها من حياة  
الشاعر ، وما وجدنا بعدها لناقد تقدراً .

كأن كل همنا هو أن ننشئ قائلاً مبرراً من الآمة ، سليماً من العاب ، بعيداً من الندام .



ثم ماذا يراد بعد هذا من القائل؟ وأي شيء ترجوه منه؟ هذا ما لم نلتفت إليه إلا في قليل من أمر قد يكون متصلاً بما قبله .

\*\*\*

للشاعر الذي له بيانه رملك العقول ، والولوج الى القلوب « رسالة » علينا أن نحاسبه عليها في تقدنا له .

وليست هذه الرسالة بأقل شأنًا من النظر إلى جودة بضاعته ودقة صناعته ، بل إن شاعراً يحمل إلى ضعف بيان ، رسالة يسعى إلى أن يجمع الناس عليها ، خير عندي من شاعر يمضي بقول معسول ، وكلام جيد الصوغ ، دون أن يهدف إلى هدف .

\*\*\*

الشاعر والكاتب من حماة البنيان ، ومثبتي الأركان ، والكاشفين الغشاوات ، والمبصرين بالهدايات ، والجامعين إلى الرأي ، والداعين إلى ما يدينون ، والمنفرين عما يستهجنون ، بما وهب الله لهم من قول شعبي ، ولفظ طلي ، له وقعته في النفس ، ولفته للحس .  
فإذا رأيت شعراً أو نثراً في غير رسالة يحمل لواءها الشاعر والكاتب ، فتلك شجرات لم تثمر ، لها الاسم وما حملت غيره .

وهذه جملة من معروف الشعراء ، في الحديث عنهم ما يفصل هذا الإجمال ، ويكشف عما نريد .





## أَمْرُ الْقَيْسِ

دعني من الحديث حول اسمه ، وما أضيف إليه من ألقاب ، ودعني من وقوفه على الديار ، وبكائه على الأطلال ، وسبقه الشعراء في تشييه الفرس بالعُقاب ، وقلوب الطير بالغُصَّاب ، والنساء بالطباء ، فذلك له مكان آخر .

وخلَّ بيني وبين أن أُجمل لك نشأته ، وأُجز حياته في غير إخلال . فنحن على أن نعرف امرأ القيس صاحب رسالة ، أحرص منّا على أن نعرفه في صور جميلة من القول .

\* \* \*

للمؤرخين قصة في نزوح آل امرئ القيس الكنديين عن اليمن إلى نجد . يفتتحونها بتلك الفوضى التي شاعت في بكر ، ووقف الناس فيها وجهاً لوجه ، خضوماً يتقاتلون ، لا أمن لهم إلى سلطان يحميهم ، ولا طمأنينة إلى رئيس منهم يدفع العادية عنهم ، ويردّ كيد الأقوياء وغلبة السفهاء .

فرأى ذوو الرأي منهم أن يجعلوا الأمر إلى سلطان من غيرهم ، يُعطونه الشاة والبيع ، يعيد الحياة آمنة مطمئنة ، بعد أن ملئت ذعراً واضطراباً ، ويسوس الناس بالعدل ، بعد أن فقدوه في ظل من ولي عليهم من ذوي قُرباهم .

فأتوا « حساناً » تُبَّعَ اليمن . فلما عليهم « حُجْرًا » آكل المرار ، من أجداد امرئ القيس . و« حُجْر » هذا بدأت هذه الأسرة الكندية تنزل « نجد » ، وكانت الحُجْر جولات مع المناذرة ملوك الحيرة ، والفساسنة ملوك الشام ، في جُسد من بكر ، كُتِبَ له معها النصر . فالتفَّ البكريون حوله ، واجتمعوا على حُبِّه وطاعته .

ومات « حُجْر » خلفه ابنه « عمرو » يسوس أمر « كندة » . ثم مات « عمرو » فولي بعده ابنه « الحارث » فغزا الحيرة ، وأخرج منها المنذر ، مستعيناً بقسباز ملك الفرس ،



وكان يجده على «المنذر» حين أبى أن يدين معه «بمزدك» .  
عز الحارث وعلا شأنه ، وغدا مقصوداً في الملمات ، مطلوباً في النجدات . يُطلب  
رضاه ، ويُشترى جواره .

\* \* \*

وتسوء الحال بين قبائل نزار ، كما ساءت من قبل في بكر ، فيهرع رجالهم الى الحارث  
يسألونه أن يولي عليهم ملكاً من أبنائه ، يضبط أمرهم ، و يقيم معوجهم ، ويجعل الأمور  
الى ثبات واستقرار .

فيفرق الحارث أولاده فيهم . فيصيح «حُجير» والد امرئ القيس ، على بني أسد  
وغطفان ، و «شرحبيل» على بكر بن وائل وبني حنظلة وطوائف من بني دارم ، من تميم  
والزباب ، و «معد يكرب» على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف  
من بني دارم بن حنظلة ، و «عبد الله» على بني عبد القيس ، و «سامة» على بني قيس .  
وفي نحو سنة ٥٤٠ م مات «قباذ» وخلفه «أنوشروان» ، ولم يكن مزدكياً كآبيه ،  
فلجأ إليه «المنذر» يستنصره على «الحارث» الذي شايع «قباذ» على المزدكية ويطلب  
«أنوشروان» «الحارث» فيخرج هائماً على وجهه .

وفي بني كلب توافيه منيته . فيقضى بيند «كلب» كما زعمت «كلب» ، أو بفلاة من  
كيسد ظي ، كما زعمت «كندة» . وفي ذلك يقول الوليد بن عدي الكندي :

فشموا فكان شواؤهم خطأ له    إن المسئنة لا تمجل جليلا

وتسهي حال أبناء «عمرو» وتتفرق كلمتهم . فيقتل «سامة» «شرحبيل» ، ثم يهلك  
سامة على يد المنذر .

وبقي «حُجير» على بني أسد . وكانت له عليهم إتاوة لا يقرون عليها في كل سنة .  
فغبر دهرأ ، ثم بعث إليهم جابيه ، فنعوه ذلك . و «حُجير» يومئذ بتهامة . و ضربوا رسله  
وخرجوهم ضرباً شديداً قبيحاً .

فسار إليهم «حُجير» بجند من ربيعة ، وجند من جند أخيه «قيس» و «كنانة» .



فأخذ سراهم ، وصيرهم الى تهامة ، وجعل يقتلهم بالعصا ، فسُـمُوا عبيدَ العصا . وأباح  
الأموال ، وحبس منهم عمرو بن مسعود ، وكان سيداً ، وعبيد بن الأبرص الشاعر .  
وقام عبيد بين يدي الأبرص يستلين قلبه ويقول :

يا عينُ فابكي ما بني أسد فهم أهلُ الندامة  
أهلُ القبابِ الحمر والنَّـمِ معم المؤبِّل والمدمامة  
في كل وادٍ بين يثـرب فالتصور الى اليمامة  
تطربُ عانٍ أو صياح محرق أو صوتُ هامة  
أنت المليكُ عليهمُ وهم العبيدُ الى القيامة  
ذُلُّوا لسوطك مثل ما ذلَّ الأشيقر ذو الحِزامه

فرقُّ لهم حجر ، وبعث في إثرهم ، فأقبلوا . فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر  
« حُـجـر » فجمعوا على قُـبـتـه . وأقبل عليه « رعباء بن الحارث السكاهلي » ، وكان « حُـجـر »  
قد قتل أباه ، فطعنه فأصاب نساءه .

ونادى بنو أسد : يا معشر كنانة وقيس ، أنتم إخواننا وبنو كَمَـنْنا ، والرجل بعيد  
النسب منا ومنكم . وقد رأيتم ما كاد يصنع بكم هو وقومه .

فشدوا على هجائنه فزقوها ، ولفوه في ريطـة بيضاء ، وطرحوه ظهر الطريق . فلما رآته  
قيس وكنانة اتهبوا أسلابه ، وأخذوا جواريه ونساءه ، وملئوا أيديهم بالغنائم .

\* \* \*

هذا حديث الآباء وهذه أحداث أيامهم . فأين امرؤ القيس ؟

كان امرؤ القيس لما قُـتـل أبوه غلاماً قد ترعرع ، مقيماً في بني حنظلة ، لأن ظئره كانت

امراًة منهم ، كما روي الهيثمُ بن عدي . ويروي له عند ما طـيـر اليه النعي :

يا لهفَ هند إذ خَطِمتُ كاهلاً      القاتلين الملكَ الحُـلـاحِلاً  
تالله لا يذهب شيخني باطلا      يا خير شيخ حسباً ونائلاً



وفي رواية أخرى للهيثم ، أن امرأ القيس كان بدمشون من أرض اليمن ، في قصفه  
ومجونه . فلما أتاه نعي أبيه ، قال :

تطاول الليل على دَمُون دمون إنما معشر يمانون .

وإننا لأهلنا محبسون

أما عن خروج امرئ القيس الى دَمُون ، فيروي ابن الكلبي أن «حجرأ» كان طرد  
امراً القيس وآلى ألا يقيم معه ، أنفةً من قوله الشعر . فكان يسير في أحياء العرب ومعه  
أخلاق من شدّاذ العرب ، من طيء وكلب وبكر بن وائل . فإذا صادف غديراً أو روضة  
أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه ، وخرج الى الصيد فتصيد . ثم عاد فأكل وأكلوا معه ،  
وشرب الخمر وسقاهم وغنّته قيانته . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء الغدير فينتقل عنه الى  
غيره ، حتى انتهى الى دمون ، وفيها وافاه خبر مقتل أبيه .

ويضيف الرواة سبباً آخر لغضب «حجرأ» على ابنه ، لم يكن غير فحشه واستهتاره  
وأتهامه بزواج من زوجاته . ويقولون : إن «حجرأ» دفعه الى مولى له يدعى ربيعة ليقته  
ويأتيه بعينيه . ولكن المولى كان يعلم مدى غلبة الآباء . ولأن قلبه لامرئ القيس حين  
سمعه يقول :

لا تتركني ياربيع لهذه وكنت أراني قبلها بك واثقا

نخلأه . وعاد الى أبيه بعيني جؤزر . ولما أحسّ جزع الأب كشف له عما أخفى . فضم  
«حجرأ» اليه ابنه ثم عاد فطرده .

\* \* \*

هذا هو الشطر الأول من حياة امرئ القيس ، عاش فيه للهو والمجون ، وشغل  
بالنساء ، فيوماً مع أم مالك يقف على أطلال ديارها فيقول :

قنا نسأل الأطلال عن أم مالك وهل تخبر الأطلال غير التهالك

ثم يتشوّق الى أم جندب زوجه فيخاطب خليليه :

خليلي مرأى بي على أم جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذب

وتعروه ذكريات سليمي فيشكو :



يا بؤس للقلب بعد اليوم ما آتته ذكرى حبيب ببعض الأرض قد رآته  
 قالت سليمي أراك اليوم مكتئباً والرأس بعدي رأيت الشيب قد عابه  
 ثم يذكر أيامه مع «الخنساء» فيحكي عنها :

قالت الخنساء لما جئتها شاب بعدي رأس هذا واشتهب  
 عهدتي ناشئاً ذا غرة رجل الجُمسة ذا بطن أقب  
 وهي إذ ذاك عليها منرٌ ولها بيت جوار من لعَب  
 ويحضره موقف له مع «رقاش» فيصفه :

قامت رقاش وأصحابي على عجل تبدي لي النّسحر والآيات والجيداً  
 ويجلس الى نفسه يعرض لياليله مع «الرباب» و«فَرَتَنِي» و«لميس» فيقول :  
 لمن الديار غشينها بسجام فعمائتين فهضب ذي أقدام  
 دار لهند والرباب وفَرَتَنِي ولميس قبل حوادث الأيام  
 ويغلبه هوى «هر» فيملي عليه :

وهو تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو حجر  
 رمطني بسهم أصاب الفؤاد غداة الرحيل فلم أتصر  
 فأسبل دمعي كفّض الجمان أو الدّر رقراقه المنحدر  
 كأنّ المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القُطر  
 يُعلّ به بردُ أنيابها إذا طرب الطائر المستحّر  
 ويدكر بفراق «هر» فراق «سلامة» و«قدور» فيقول :

عفا شطّط من أهله فعزور فربولة إن الديار تدور  
 فجزع حمية كأن لم تقم بها سلامة حولاً كاملاً وقدور  
 ويعود إلى «بسباسة» يفند زعمها فيه :

ألا زعمت بسباسة اليوم أني كبرت وألا يحسن السرّ أمثالي  
 كذبت لقد أصبى على المرء عرسه وأمنع عرسي أن يزنّ بها الخالي  
 وتشوقه «سعاد» فيقول :



لعمرى لقد بأت بحاجة ذى الهوى      سعاد وراعت بالفراق مُروِّعا  
 ويعتب على « ليلي » جفوتها في قوله :  
 تنكرت ليلي عن الوصل      ونأت ورتَّ معاقِد الحبْلِ  
 وتقرأ معلقته فتجد فيها ذكراً للحويث وأم الرِّباب في بيته :  
 كدأبك من أم الحويث قبلها      وجارتها أم الرِّباب بمأسل  
 ثم لعنيزة التي يقول فيها :  
 ويوم دخلت الحيدرخدر عُنيزة      فقالت لك الوليات إنك مُرْجلي  
 ثم لفاطمة في بيته :  
 أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل      وإن كنت قد أزمعت صرْجي فأجلي  
 وإلى هذا العبث النسائي وصف امرؤ القيس جريه في إثر الوحش :  
 خرجنا نريغ الوحش حول ثُعالة      وبين رُحِيَّات إلى فيج أخرب  
 ( ثُعالة ورحيات وأخرب : أمكنة )  
 فأنت سرِّباً من بعيد كأنه      زواهر عيد في ملاء مُهندَّب  
 كما وصف فرسه ومقعدده منه بمثل قوله :  
 ففقسى على آثارهنَّ بحاصبٍ      وغيبة شؤبوب من الشدْ مُسَلِّب  
 فلبساق ألُبوب والسوط درة      ولزَّجر منه وقعُ أهوج مُسْنَعِب  
 وكذلك وصف إقدامه في مثل قوله :  
 ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحي      على هيكل نهْد الجُزارة جوَّال  
 وقوله :

وقد أغتدي والطيْرُ في وكناتها      بمنجرد قيد الأوابد هيكل

\* \* \*

أجل ، لهذا ومثله عاش امرؤ القيس ، هذا الشطر الأول من حياته ، لم يتعد في قليل  
 ولا كثير عنه ، ولا التفّت لغيره .



وبلغه مقتل أبيه فهبَّ يطالب بدمه ، ويستنصر على قاتليه . أو قل : يسعى لمسلِكٍ خلا الطريقُ أمامه إليه . فقد كنعَ إخوته ، وكانوا يكبرونه سنًّا ، ورأوا الخطب فوق قوتهم ورأى هو الفرصة مواتية . وإنما هي جولة أو اثنتان يتربع بعدها على عرش أبيه ، ويستبدل بتلك الرعية من الشدَّ اذرعية فيها الوجوه والسادة .

ذلك عندي ما دفع بامرئ القيس دون إخوته ، إلى ما أقدم عليه . وقد كان فيما فعله أبوه معه ما ينكب به ويصرفه عن هذا السبيل ، إن كان الأمر إلى الثأر ، وإلى الثأر وحده .

\* \* \*

ومن هنا بدأ الشطر الثاني من حياة امرئ القيس .

أخذ امرؤ القيس يتهدد بني أسد ويتوعدهم ويهيء لغزوهم في شعر كثير منه :

أتاني وأصحابي على رأس صيلعٍ      حديثُ أطار النوم عني وألعا

فقلت لعجليٍّ بعيدٍ ما به      تبين ويبن لي الحديث المعبجا

فقال أبيت اللعن عمرو وكاهل      أباحوا حمي «حُجر» فأصبح مسلما

ولظن بنو أسد أنها لا طاقة لها به ، فتسوفد عليه الوفود يعرضون عليه الفداء في صور

شتى ، أو المسهلة حتى تضع الحوامل . فيجيبهم إلى النظرة ويأبى الفداء .

وكان في الوفد قبيصة بن نعيم فقال له متمثلاً :

لعلك أن تستوخم الموت إن غدت      كتائبنا في مأزق الموت تمطر

وأنت ترى أن القوم لم يعرضوا على امرئ القيس عرش أبيه فيهم . فكأنهم أقرؤا

الناشرين على ما فعلوا ، وسئمو ازعامة الكنديين عليهم ، ونفضوا أيديهم من هذا الأمر ،

وجاءوا إلى امرئ القيس لارعايا مُسنيين مسلمين ، بل راضين خلاصهم ، طامعين في أن

يشتروا الدم المراق ، بعُروض وأرزاق .

وعباً امرؤ القيس جوعاً من تغلب ، وأدرك بني أسد على بعض المياه ، فأنكى فيهم ،

ففرُّوا مع الظلام . وأراد امرؤ القيس السير خلفهم ، فأبى عليه ذلك رجال بكر وتغلب ،

وانصرفوا عنه إلى ديارهم .

ومحسب البكريون والتغلييون الخطب ثأراً ، ويراها امرؤ القيس عرشاً : فيخرج إلى



مرثد الخير ، قليل من أقيال حمير ، يستنصرة . فيعده ، وتعالجه المنية دون أن يُعين .  
ويخلفه قرمل بن الجسيم ، فيجيب امرأ القيس الى ما طاب على خير رضى . ثم ينقض أكثر  
هذا الجند عنه بتأليب المنذر عليه .

✱

ويقصد امرؤ القيس العشائر يلتمس العون ، فيؤم أم سعد بن الضباب ، فيكرمه ،  
فيقول فيه :

يفاكهنا سعدٌ وَيُنعمُ بالنّا وَيغدو علينا بالجفان وبالجزر  
ويرى امرؤ القيس العون عندهذا ، فيتركه الى المعلى بن تيم . واذا ما أكرم المعلى  
وفادته انطلق لسان امرئ القيس يمدحه :

كأنّي اذ نزلتُ على المُعلّى نزلتُ على البواذخ من شمام  
ثم يساء اليه فيخرج إلى عامر بن جوين . ولكنه يخافه على نفسه ، فيفرّ الى بني ثعل ،  
ثم إلى زار . فيدله رجل منهم على السموأل . ويكتب السموأل إلى الحارث بن أبي شمر  
الغساني بالشام ، لا يصلح امرئ القيس إلى قيصر ، ملك الروم .  
ويمد قيصر امرأ القيس بجيش . ويوغر الطّباح بن قيس الاسدي صدر قيصر ، فيكيد  
لامرئ القيس . ويختار الرواة حديث الحلة المسمومة . فيقضي امرؤ القيس فيها نحبه .

\*\*\*

خياة امرئ القيس كما رأيت شطران ، شطر لهذا الالهو والمُجون ، على رأس شزيمة  
من الصعاليك . والشطر الثاني في رحلة وتطواف ، من قبيل الى قبيل ، يحظى هنا ويخيب  
هناك .

وكان لهُذين الشطرين شعره . أشبع في الأول نزواته وجرى مع طيشه ، وعاش في  
الثانية مداحاً هجاءً ، يشكر المعينين ويذم الخبيثين . عدا قليل صدر عن النفس ، في بعض  
ما تجدد وتحس .

وجلّ ما قال امرؤ القيس لا شك جميل فيه قوة وفيه رصانة ، له هزة ومعه طرب .



ولكن أهذه هي رسالة امرئ القيس؟ أو لهذا كان شعره الذي شغل الناس به ولا يزال يشغلهم؟ وهل كل ما يعنيننا عنه هذا التراث الذي كان خالصاً له، ليس للناس حوله منه نصيب؟

لقد كان العصر قلقاً مضطرباً، تسوده فوضى وبلبلة. فقد فيه الناس أساليب الحكم المنظم، وانمحّت موازين العدل، وأضلّ الناس الوازع، واطرحوا الثقة جانباً بسرواتهم حين لم يجدوا منهم رعاة صالحين، وقادة مُنصفين، فدّوا اليد على كُسرهِ يلتمسون عادلاً من غير قومهم ينشر عادلاً افتقدوه، ومُنصفاً يبسط إنصافاً حُرّموه.

وكانت هذه النفوس التي عرفت العدل والظلم، والإِصاف والجور، والحق والباطل، والتي اشترت من تحكمه عليها اشتراء، حرية أن تُعَدَّ على الحاكم خطواته، وألاًّ تغفل ساعة عن النظر فيما يأخذ فيه من فعل أو قول.

كانت هذه النفوس التي أدّبتها الحوادث، ونشأتها المحن، جديرة ألاًّ تُخدع عن أمرها، وألاًّ تفي عن هبّتها، إن أحست ضيماً، أو سيمت خسفاً.

لذلك رأيناها لم تسكت على جنف الغريب النازح — كما لم تصبر من قبل على ظلم المواطن الفادح، فتنكرت لحجر، وكان من حديثها معه ما كان.

وليس الأمر أمر ثورة، ولكنه عصر فدحته أعباء، وآدته نُظُم كان يراها لا تجري مع مطالبه وأمانيه. ولو زادتنا المراجع لزدناك عنه بياناً، ولكنه مع تلك الإشارات والمحات، يدلنا على حقبة من تلك الحقب الصاخبة التي تمتحن فيها الشعوب، فتخرج منها إما إلى سُودد ورفعة، وإما إلى ذلة وهوان. عاش الناس فيها في صراع يهدأ ليستجم، ويتوزّع ليتجمع، ويخمد ليذكو.

فأين كان امرؤ القيس من هذا كله، وأين وجدانه الشاعري؟ أما في النصف الأول فإننا لا نشم لهذا ريحاً، بل يكاد القلم يكتب: ان امرأ القيس بحياته كان سبباً من أسباب الانقلاب الذي جنى أبوه شره.

أنسيت كيف عدا امرؤ القيس على الحرّمات، واقتحم الخدور على الزوجات؟ ألم تسمع الى قوله:



فأصبحتُ معشوقاً وأصبحَ بعليها عليه القَتَامُ سيَّ الظنِّ والبالِ  
يغط غطيط البسِّكر شدَّ خناقَه ليقتلني والمرءُ ليس بقتَّالِ  
أو إلى قوله في معلقته :

فأنلك حبلى قد طرقتُ ومرضعتُ فألهيتُها عن ذي تمامٍ محوِّلِ

\*\*\*

أو نسيت أنه تزعم شرذمة عاش معهم على ما ينتهب ويبتز ؟  
ثم أنسيت بعد هذا وذاك شعراً لم يصنع لحكمة أو سداد ، وإنما قيل في التشهير  
بما يحرص الناس على أن يستر ، ويخشون أن يُذيع .  
أما عن النصف الثاني ، فأنا لا أكاد أعدُّ ما صدر عنه فيه شعراً شاعر . وقد عودنا ناظم  
يكثر من قول الشعر ولا يُجيده ، أن يُرسل لنا مع أول كل شهر أبياتاً يسألنا بها شيئاً .  
فكنت أذكر به امرأ القيس ، مع ما فرَّق الأمر بينهما فيه ، من إجادة وإسفاف .  
ولكنهما في الغرض سيَّان . فهذا يسأل قروشاً للعيش ، وذاك يسأل جنوداً للبطش . ولو  
سوَّى البيان بينهما لتعادل الشعران قوة . ولكن أين الغرض ؟ وأين الدافع النفسي السامي ؟  
ما كان أجدر امرئ القيس أن يضبط لسانه ويسمو بشاعريته عن السؤال والضراعة ،  
وما كان أحراه أن يجعل الشعر للكر والفر كما جعله في بعض الأمور .  
أفترى بعد هذا ان امرأ القيس عاش لرسالة ؟

أما إنه لو التفت إلى ما حوله ، واستجابت نفسه لتلك الصيحات الآلة ، وشارك  
بوجدانه الشاعري ، وكشف لنا عمّا يجده في نفسه لهذا الذي خاض الناس غمراته بحاراً  
من دماء ، كان لهم أو عليهم ، لعددناه مع أصحاب الرسالات من الشعراء ، وخلد مع ألفاظه  
الشعرية معاني تعيش في صدور من تعمر قلوبهم بالوجدانات ، التي لا يُعرف الشعراء إلا  
بها ، بل إن الشعراء بها يُعرفون قبل أن يعرفوا بالقول المعسول واللفظ المونق الجميل .  
في الحق لقد عاش امرؤ القيس ذا أذن صماء ، لا يحمل رحسَّ الشاعر ووجدانه ، وإن  
ملك لسانه . أو قل إنه عاش لنفسه . وليس هكذا يعيش الرسل من الشعراء . وما نظلم  
امرأ القيس غير هذا مما أجمع الناس له عليه ، فهو فيه جُذيلها المرجَّب ، وحُجيرها المؤوَّب .



## النايعة الذبياني

يلتقي النايعة أبو أمامة زياد بن معاوية إلى ذبيان، وذبيان إلى غطفان، وغطفان إلى قيس. وغطفان قوم ذوو مرأس وبأس شديد. عرفت جيوش المسلمين لهم ذلك حين تراءى الجمعان يوم ذات الرقاع، فأنحاز كلٌّ إلى ناحية، وخاف الناس بعضهم بعضاً ولم تكن حرب. وشرع الله صلاة الخوف في تلك الغزاة.

ورأينا غطفان مع الأحزاب يوم الخندق يلتفون بالمدينة محاصرين، ورأيناهم يوم ذي قرد عليها مغيرين، ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهراني المسلمين. ورأيناهم أول بادىء بالغارة على المدينة يوم ذي القصة. وأبو بكر يلى أمر المسلمين خليفة عليهم.

وعرفنا لهم حروباً شنتها البطون، وصليتها العشائر، وأخرى ثارت بينها وبين غيرها من القبائل تسعى الحصر، وليس من اليسير أن يحيط بها إحصاء.

\*

هؤلاء هم غطفان، أهل النائرة والثائرة، يكاد يكون لهم في كل فني إلى جوارهم دم. وهكذا كان العصر الذي يظلمهم، ما طلعت له شمس إلا على حرب، ولا غربت إلا مع أهبة لأخرى.

وبين ذبيان خاصة وعبس كانت حرب داحس والغبراء. بقيت أربعين سنة، لم تستج لهم فيها ناقة ولا فرس — كما يروي أبو الفرج.

ذكر المؤرخون لهم فيها أياماً، دارت فيها الدائرة لعبس يوماً ولذبيان يوماً، وعدوا منها يوم المريقب، ويوم ذي حُسا، ويوم اليعمرية، ويوم الهبأة، وأياماً أخرى غيرها. أشبعوا فيها سباع الطير من لحومهم، وسقوها قانياً من جاري دماهم. وانطلقت فيها



ألسن الشعراء بالقول ، يذكرون بلاء قومهم وبلاءهم ، ويُسندون على خصومهم كبواتهم ،  
ويذكرون قتلاهم فيندبونهم ، ويتوعدون بالنار قاتليهم .  
وكاد الشعر أن يكون لنا سجلاً مسطوراً يضم حديث الحرب وما دار فيها .

\* \* \*

أظلت سحابة هذه الحروب النابغة ، وكان معها ، إن صحَّ تقدير المؤرخين ، في  
الأربعين أو دونها بقليل <sup>(١)</sup> .

ففي العام الثامن والستين بعد الخمائة ، بدأت حرب داحس . ويقدر أبو الفرج  
الأصبهاني عمرها بأربعين سنة . ويكادون يتفقون على أن النابغة عاش إلى الرابعة بعد  
الستمائة ، وأنه مات معمرًا بعد أن وخطه الشيب . ويروون له مراثية رثى بها النعمان بن الحارث  
الغساني . وكان قتل في غزاة له سنة ستائة ، تشير إلى شيبه ، فوق ما تشير إلى حياته إلى تلك  
الأيام ، وفيها يقول النابغة :

دعاك الهوى وأستهلك المنازلُ      وكيف تصابي المرء والشَّيبُ شامل  
هذا جانب من الحياة التي آتت النابغة ، عاش قومها فيها في شكوتهم وعلى ظهور  
خيلهم تركه إلى حين ، حتى تقفو خطوات شاعرنا من مهدد إلى لحد ، ونحصى عليه حركاته  
ثم كلماته .

\* \* \*

نشأ النابغة في نجد ، في الذروة الحصداء والركن الأشد عند نقر ، أو في الوسط من  
قومه كما يذهب إلى ذلك نقر .

ولا تحفظ لنا الآثار من شبابه غير حديثه مع حاتم الطائي من أجل ماوية . وبعد هذا  
يأتي الحديث عن النابغة بين المناذرة ملوك الحيرة ، وبين الغساسنة ملوك الشام .

فأول ملوك الحيريين ، فيا يروون ، مالك بن فهم بن دوس ، وكان سار من اليمن مع  
ولد جمنة بن عمرو بن عامر من بقاء . فسار بنو جمنة نحو الشام ، وانفصل مالك نحو  
العراق .

(1) De Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes.



وملك بعده ابنه جذيمة، من مشارف الشام الى الفرات . ثم بعد جذيمة ابن أخته عمرو ابن عدي بن نصر بن ربيعة . وكان أول من نزل من الملوك الحيرة واتخذها منزلاً ومقر ملك ، وبعد جذيمة كان امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ، ثم عمرو بن مرى القيس ، وهو محرق العرب . ثم النعمان بن امرؤ القيس .

ثم ملك المنذر بن النعمان ، وأمه ماء السماء بنت عوف ، سميت كذلك لحسنها وجمالها . وهو فارس يوم حليلة ، بين المناذرة والغساسنة (سنة ٥٥٤) . ويذهب بعض الرواة الى أن النابغة اتصل به ، وان ذلك قبيل مقتله يوم حليلة .

وبعد المنذر ابنه عمرو ، ثم قابوس بن المنذر . ثم ملك النعمان بن المنذر . وحكم ، فيما يقال ، اثنتين وعشرين سنة . وهو الذي قال فيه النابغة فأكثر . ثم كانت نكبة الخيرين على يد كسرى أبرويز ، وذلك بدس زيد بن عدي عليهم عند كسرى ، وكان عدي ينقم على النعمان قتله أباه زيدا .

\* \* \*

أما عن الغساسنة فكان أول من ملك منهم بالشام الحارث بن عمرو بن عامر . ثم ملك بعده الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر . وأمه مارية ذات القرطين . ثم عمرو بن الحارث . وكان النابغة فرّاً إليه هرباً من النعمان أبي قابوس ، وقال فيه بأثيته المشهورة:

كليني لهم يا أميمة ناصب      وليل أقاسيه بطيء الكواكب  
ومنها :      عليّ لعمرؤ نعمة بعد نعمة      لوالده ليست بذات عقارب

ثم كانت صلته بأخيه النعمان بن الحارث بعد وفاة عمرو سنة ٥٩٧ . فيما يحكون . وكان النعمان هذا — ويكنى أبا كرب وأبا حجر — غزاًء ، لا يغفر للبدو أن يعيشوا في أرضه ، وكان الى هذا فارساً مرهوباً .

وفي نحو سنة ٦٠٠ لقي النعمان حتفه في خروجة من خرجاته ، والناس بين مصدق ومكذب . فرثاه النابغة بلاميته :

وقفتُ برقع الدار قد غيّر السلي      معارفها ، والسراياتُ الهواطلُ



أَسْأَلُ عَنْ سَعْدِي وَقَدْ مَرَّ بَعْدُنَا      عَلَى عَرَسَاتِ الدَّارِ سُبْنَعُ كَوَامِلُ  
وَمِنْهَا :

وَرَبِّ بَنِي الْبَرِّ شَاءَ ذَهْلُ وَقَيْسُهَا      وَشَيْبَانُ حِينَ اسْتَبَهَلَتْهَا الْمَنَاهِلُ  
( البرشاء : أم ذهل وقيس وشيبان ، أبناء ثعلبة . واستبهلتها المناهل أي أقامت بها مهلة لاحكم لسلطان عليها )  
لَقَدْ عَالَنِي مَا سَرَّهَا وَتَقَطَّعَتْ      لِرَوَاعَتِهَا مِنِّي الْقُيُوتُ وَالْوَسَائِلُ  
( طائي : حزنني . وسرها ، الضمير لبني البرشاء )  
فَلَا يَهْنِي الْأَعْدَاءُ مَصْرَعُ مُلْكِهِمْ      وَمَا عَتَقَتْ مِنْهُ قِيَمٌ وَوَائِلُ  
( عتقت : نجت )  
وَمِنْهَا :

فَإِنْ تَكْ قَدْ وَدَّعْتَ غَيْرَ مَذْمُومٍ      أَوْاسِيَّ مُلْكٍ تَبَسَّتَهُ الْأَوَائِلُ  
فَلَا تَبْعُدُنْ إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَوْعِدٌ      وَكُلَّ أَمْرِيَّ يَوْمًا بِهِ الْحَالُ زَائِلُ  
فَمَا كَانَ بَيْنَ الْخَيْرِ لَوْ جَاءَ سَالِمًا      أَبُو حُجْرٍ إِلَّا لِيَالٍ قَلَائِلُ  
وَاتَّصَلَ النَّابِغَةُ بَعْدَ النِّعْمَانِ بْنِ الْحَارِثِ بِحُجْرٍ . غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِبْ الْمَقَامَ ، وَرَأَى أَنَّ  
يَعُودُ أَدْرَاجَهُ إِلَى النِّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ .

وَهُنَا يَخْتَلِفُ الْمُحَدِّثُونَ . فَيَذْكُرُ ابْنُ قَتَيْبَةَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ عَنْ دَعْوَةٍ مِنَ النِّعْمَانِ ، مَعَهَا  
تَأْمِينٌ وَغَفْرَانٌ . وَيَعُزُّوْهُ أَبُو الْفَرَجِ ذَلِكَ إِلَى إِشْفَاقِ النَّابِغَةِ عَلَى النِّعْمَانِ حِينَ انْتَهَى إِلَيْهِ أَنَّهُ  
مَرِيضٌ ، وَكَانَ يُحِبُّهُ . وَيَذْهَبُ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى رَأْيِ أَخِيرِ يَظُنُّهُ ، هُوَ حَنِينُ النَّابِغَةِ إِلَى عَطَايَا  
النِّعْمَانِ وَعَصَافِيرِهِ . وَمَا كَانَ لِيَخْشَى بَطْشَهُ وَمِنْ وَرَائِهِ عَشِيرَتُهُ لَا تَسْلَمُهُ وَلَا تَحْذُلُهُ .

\*

تَرَكَ النَّابِغَةُ الشَّامَ وَالْغَسَّاسِنَةَ وَقَصَدَ النِّعْمَانُ بِالْحَيْرَةِ ، فَأَمَنَهُ وَأَدْنَاهُ إِلَيْهِ وَاسْتَنْشَدَهُ وَوَصَلَهُ  
وَلَكِنْ أَيَّامَهُ مَعَ النِّعْمَانِ لَمْ تَطُلْ . فَقَدْ قَدِمْنَا لَكَ شَيْئًا عَنْ نَكْبَةِ النِّعْمَانِ عَلَى يَدِ كَسْرَى ،  
فَلَحِقَ النَّابِغَةُ بِقَوْمِهِ ، وَعَادَ إِلَى نَجْدٍ مَهْدِهِ الْأَوَّلِ مُمْتَنِلًا بِهَذِهِ الْآيَاتِ :

مَنْ يَطْلُبُ الدَّهْرُ تَدْرِكُهُ خَالِبُهُ      وَالدَّهْرُ بِالْوَتْرِ نَاجٍ غَيْرُ مُطْلُوبٍ  
مَا مِنْ أَنَاسٍ ذَوِي مَجْدٍ وَمَكْرُمَةٍ      إِلَّا يَشُدُّ عَلَيْهِمْ شِدَّةَ الذِّيبِ  
حَتَّى يُبِيدَ عَلَى عَمْدٍ سِرَاتِهِمْ      بِالْإِنْفَادَاتِ مِنَ النَّبِيلِ الْمَصَائِبِ



بقي شيء يمت إلى ذوق النابغة الشعري ، وبصره بنواحي القوة والضعف من الشعر ، نسوقه لا لتلك الصلة ، بل لدلالة أخرى تكشف لنا عن محل النابغة وبين الناس ، ولا سيما بين أضرابه من الشعراء ، ذلك أنه كان محكماً في سوق عكاظ ، تضرب له قبة من آدم ، وينشده الشعراء ، وله فيهم كلمة القاضي وفصل المسود .

وتلك منزلة يقيد منها النابغة لو شاء كثيراً ، وفرق بين ما يصدر عن المحل الأرفع والمحل الأدنى ، وبين كلام المصدرين وكلام المجنسين ، وإنك لتدرك أثر ما تقول وأنت إمام ، ثم وأنت من العوام .

هذا ما نريد أن نضمه إلى حياة النابغة ، فلنا منه سبب من أسباب الفصل في أمر النابغة .

\* \* \*

هذا هو عصر النابغة : حرب داحس والغبراء التي عاشت معه من اكتماله ، ثم خلفها مشبوبة مستعرة إلى رمسه ، إلى حُرَيْبَات لا تعدو أن تكون عراك أيام بين قبيله والقبائل المجاورة ، منها ما كان من إغارة لقومه في أحلافهم من بني أسد على أرض الغساسنة ، بعد وقعة عين أبغ ، التي هزم فيها المنذر الغساني قابوساً ، وبقيت المناوشة بعدها بين الغساسنة والمناذرة في غير هدأة ، وغنمت القبائل المحيطة الفرصة فأغارت هنا وهناك لتغنم ما تقوى على سلبه من هاتين الدولتين المشغولتين ، ومنها تربيع الديانين قومه مع بني أسد وبني تميم المرباع المحمية من أرض النعمان الغساني وسوقهم ما تقع عليه عيونهم من نعم وماشية أمامهم ، وما كان يتبع ذلك من نهضة المنذر ثم النعمان لتأديبهم والذيل منهم . والرواة لا يذكرون بيتاً واحداً للنابغة في حرب داحس والغبراء ، على حين غني بها زهير بن أبي سلمة وخصها بمعلقته .

والنابغة وإن لم يفعل هذه فقد فعل غيرها ، تنطق بمشاركته واتصاله بعشيرته . من ذلك جهده في أن يحفظ لقومه حلقهم مع بني أسد وبني تميم ليشتد بذلك أثرهم ، ويقووا على حرب العبسيين وأحلافهم من بني عامر ، وأنه لهذا وصل حسبه بجبل الغساسنة فشفع فيهم لدى الحارث الغساني ، وكان أسر منهم جمعاً كانوا مع حليفهم المنذر .

ثم قيامه للعبسيين والعامريين الذين حاولوا جاهدين فصم هذه العروة ، منالها يهجو



أعداءه مرة ويمدح محالي قومه أخرى . ترى شيئاً من هذا في قول النابغة يهجن مسعى  
عينه في إبعاد أسد عن ذبيان ، ويمدح بني أسد :

أَلِكْنِي يَا عَيْنَ الْيَك قَوْلَا      سأهديه اليك ، إليك غني  
قوافي كالسلام إذا استمرت      فليس يرد مذهبها التظني  
( السلام : الحجارة )

بهنَّ أدين مَنْ يبغي أذاقي      مُداينة المُداين قَلِيدَنِي  
أَتُخَذِلُ ناصري وتُعزُّ عبساً      أيربوع بن غيظٍ للمعن  
( أيربوع بن غيظ : رجل من أحلاف النابغة . والمعن : الذي يتعرض لما لا يعنيه . يريد : عينه ، واللام فيه للاستغاثة )

كَأَنَّكَ مِنْ رَجَالِ بَنِي أَقْيَشَ      يُسْقَعَمُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بَشَنٌ  
( البشن : التربة اليابسة )

تَكُونُ نَعَامَةٌ طَوْرًا وَطَوْرًا      هَوِيَّ الرِّيحَ تَنْسِجُ كُلَّ فَنٍ  
( نعامة : في الحق والجهل . وطوراً خدعة كالريح تنسج فنونا من الخدع )

تَمَنَّيَ بَعَادَهُمْ وَاسْتَبَقَ مِنْهُمْ      فَإِنَّكَ سَوْفَ تَسْرُكُ وَالتَّمَنِّي  
إِذَا حَاولَتْ فِي أَسَدٍ جُورًا      فَإِنَّ لِسْتَ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي  
فَهُمْ دَرَعِي الَّتِي اسْتَلَأْتُ فِيهَا      إِلَى يَوْمِ النَّسَارِ وَهُمْ مَجْنِي  
( النصار : يوم كان لاسد بن عمرو ، من تميم ، على هوازن ) .

وَهُمْ وَرَدُوا الْجِفَارَ عَلَى تَمِيمٍ      وَهُمْ أَصْحَابُ يَوْمِ عِكَاظٍ إِنِّي  
( الجفار : ماء لبني تميم بنجد ، كانت عنده وقعة بين تميم وبكر ) .

شَهِدْتُ لَهُمْ مَوَاطِنَ صَادِقَاتٍ      أَتَيْنَهُمْ يَوْمَ دَالِ الصَّدْرِ مَنِّي  
وَهُمْ سَارُوا الْحَجَرَ فِي خَمِيسٍ      وَكَانُوا يَوْمَ ذَلِكَ عِنْدَ ظَنِّي  
( حجر ، هو أبو اسرى الغيس )

إِلَى أَنْ قَالَ :

وَلَوْ أَنَّنِي أَطْعَمْتُكَ فِي أُمُورٍ      قَرَعْتُ نَدَامَةً مِنْ ذَاكَ سَنِّي

ثم تعال الى قوله يُسْفَهُ رأي زُرعة بن عمرو ، وكان لقي النابغة في عكاظ وطلب إليه



ناصحاً أن يشير على قومه أن ينفضوا يدهم من حلف بني أسد . ولما لم يستمع إليه النابغة  
توعده زريعة . فقال النابغة يرد عليه إيعاده ، ويذكر بالفضل حلفاءه :

نُبِئت زريعة والسفاهة كاسمها      يُهْدِي إِلَيَّ غرائب الأشعار  
خُلفتُ يا زرع بن عمرو أفني      مما يشق على العدو ضراري  
( ضراري ، أي دنوي منهم ولحق بهم )

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني      تحت العجاج فما شققت غُباري  
إِنَّمَا اقْتَسَمْنَا خُطَّتَيْنَا بَيْنَنَا      خُملتُ برّةً واحتملتَ خُفَار  
فَلْتَأْتِيَنَّكَ قَصَائِدٌ وَلِيَدْفَعَنَّ      جيش إليك قوادمَ الأكوار  
( يتوعد به بالغارة )

رهط ابن كوز مُحَقِّي أدراعهم      فيهم ورهطُ ربيعة بن حُذار  
( ابن كوز ، من بني مالك بن ثلبه . مُحَقِّي أدراعهم ، أي جاعليها كالحفائر معدة ، وربيعة بن حذار ،  
من بني سعد )

ورَهْطُ حَرَّابٍ وَقَدِّ سَوْرَةٍ      فِي الْمَجْدِ لَيْسَ غُرَابُهَا بِمَطَارٍ  
( حَرَّابٍ وَقَدِّ : رجُلان من أسد . ليس غرابها بمطار ، أي إن فيها ما يمسك الغراب عن أن تتصرف عنها ،  
لأنهم في أعدائهم فالغرابان في ركبهم لا تبارحهم لوفرة ما تطعمه من حيث التثلي )  
وَبَنُو قُوعَيْنَ لَا مَحَالَةَ أَنَّهُمْ      آتَوْكَ غَيْرَ مَقْلَسِي الْأَظْفَارِ  
( بنو قعين : من بني أسد )

سَهْكِينَ مِنْ صَدَأِ الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ      تَحْتَ السَّنَوَرِّ جَنَّةُ الْبَقَارِ  
( سَهْكِينَ : بهم رائحة صدأ الحديد لطول لبسهم الدروع . والسَنَوَرُ : السلاح التام . والبقار : موضع  
زعمت العرب أنه كثير الجن )

وَالْغَاضِرِيُّونَ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا      بِلَوَائِهِمْ سِيْرًا لِدَارِ قَرَارٍ  
( الْغَاضِرِيُّونَ : من بني غاضرة بن مالك ، من أسد . ولدار قرار ، أي للثبات لا للهرب )  
تَمْشِي بِهِمْ أَذْمُ كَأَنَّ رَحَالَهَا      عَلَقَ هُرَيْقٌ عَلَى مُسْتَوْنِ صُورِ  
( الأدم : الأبل العتاق . والمعلق : الدم . والصوار : القطيع من بقر الوحش )

جَمْعًا يَظَلُّ بِهِ الْفَضَاءُ مَعْضَلًا      يَدْعُ الْإِيكَامَ كَأَنَّهُنَّ صَحَارِي



حولى بني دودان لا يعصوني وبنو بغيض كلهم أنصاري  
( بنو دودان : من أسد . وبنو بغيض ، يريد بني ذيان ) .

\* \* \*

فأنت ترى في هذا القدر ما يغنيك عن غيره ، ويدلك على أن النابغة لم يبعد عن حرب  
داحس والغبراء ، وأنه عاش لجانب منها رأى في حفظه حفظاً لدعامة قوية وسند شديد  
يكفلان لقومه الوقوف في وجوه عبس . فنصب نفسه للذود عن هذا الحلف ، ووقف  
يرد على المغرضين ، ويفند مزاعم المبطلين ، وراح يشفع لأسراهم لدى الغساسنة حين وجد  
الفرصة لذلك موالية .

ونريد أن نقول : إن رحلته إلى الشام لم يكن هذا مبعثها ، فقد عرفت مما سقنا إليك  
بواعثها . ولكن حسب الرجل أنه لم ينس إلى حظه حظاً أسمى وأشرف لآله وعشيرته ،  
فأداه على وجهه ، لم يدخر وسعاً ولم يأل جهداً .

يُحكى أنه ركب إلى الحارث بن أبي شمر في شأن أسرى بني أسد وبني فزارة . فأجابه  
الحارث إلى ما طلب وخلي عنهم .

وكان حصن بن حذيفة الفزاري أصاب في غسان قبل ذلك بعام . فقال الحارث للنابغة :  
ما رمى بني أسد إلا حصن ، وقد بلغني أنه لا يزال يجمع علينا الجموع . فقال له النابغة :  
أبيت اللعن ! إن الذي بلغك باطل . وقال في ذلك :

إني كأني لدى النعمان خبره      بعض الأودّ حديثاً غير مكذوب  
بأن حصناً وحيّاً من بني أسد      قاموا فقالوا حماناً غير مقروب  
ضلّت حلومهم عنهم وغرهم      سنّ المعيدي في رعي وتغريب

( السن : حين القيام على المال والناشية . والمعيدي ، مصغر منسوب إلى مد . والتغريب : أن تكون الابل  
في المرعى لا تروح إلى أهلها )

إلى أن قال : وما بحصن نعبس إذ تورّقه      أصوات حي على الأمرار محروب  
( الأمرار : مياه في بلاد بني أسد . والمحروب : الذي سلب ماله ) .

ظلت أقطيع أنعام مؤبلة      لدى صليب على الزوراء منصوب



فأذوقيت بحمد الله شرَّها      فأنجي فزاراً إلى الأطواد فاللوب  
ولا تلاقي كما لاقت بنو أسد      فقد أصابتهم منها بشؤبوب  
لم يبق غير طريد غير مُنفلت      ومُوتق في حبال القد مسلوب  
أو حُرّة كهامة الرمل قد كُبت      فوق المعاصم منها والعراقيب  
تدعو قميناً وقد عض الحديد بها      عض الشفاف على صم الأنايب  
( قمين : بطن من أسد )

مستبشرين قد آلموا في ديارهم      دعاء سُوع ودُعْمي وأيوب  
( سُوع ودُعْمي وأيوب : من غسان )

هذا بلاء النابغة عن قومه في هذه ، ولا يضيره أنه لم يسلك فيها مسلك زهير ،  
فلكل مذهبه في الحياة . فلعل النابغة كان يرى أن ينتصف قومه من أعدائه بالسيف ،  
فذهب يعينهم وينفخ في روح أحلافهم ، ويحيط ذلك بسياج تألفت حلقاته من :  
( ١ ) رده مزاعم الخصوم ( ٢ ) وسعيه في الشفاعة عنهم لدى الملوك ( ٣ ) والإشادة  
بما أكرم وتعداد مناقبهم .

على حين رأى زهير أن في الصلح حقناً للدماء وكتباً للنزوات .  
فالنابغة صاحب رأي لا يزال عليه الكثير . وإن الضربة القاصمة تضمن في ظلها سماً ،  
وإن كان مصنوعاً ، دهر أطويلاً . وزهير صاحب رأي يؤمن به من على حكمته وفلسفته ،  
وأن الصلح إذا أقيم على دعائم من الرضى المتبادل ، والصفاء المشترك ، كتب للسلم البقاء  
إلى الأبد .

ذاك عندي هو الذي جعل الرجلين كلاهما إلى سبيل . وما أظن النابغة على تقصير حين لم  
يلج موج زهير ويذهب مذهبه . هذا وقد رأينا له في هذا الميدان كلمات ، ولكنها من  
لون آخر .

وقد تكون تلك الصلة التي مكنت للنابغة في بلاط الملوك ، وما ورثه عن آله من نزوع  
إلى البطش ، هما اللذان طبعاه بهذا الطابع .

إذ مع الملوك الطمع في العون . ومن تلك الطبيعة الموروثة ما يقوي هذا الطمع ويذكره



غير أنهم قالوا إن النابغة دان للبلاط الغساني بأكثر مما دان به لدويه . وحكوا أن  
النعمان بن الحارث حمى « ذا أقر » فاحتماه الناس وتربعت به بنو ذبيان ، فحذرهم النابغة  
بطش الملك . فغيروه خوفه النعمان . وقالوا رعيدي ممالىء . فقال النابغة :

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر وعن تربتهم في كل أصفار  
وقلت يا قوم إن الليث منقبض على برائه لوثة الضاري  
إمّا عَصِمْتُ فَإِنِّي غَيْرُ مَنْفَلْتِ مَنِ الْإِصَابُ فُجِبَتْ أَحَرَّةُ النَّارِ  
( الإصَاب : جمع لصب . وهو الثوب الضيق من الجبل . وحرّة النار : لبي مرة )

وعَيَّرْتِي بنو ذبيان خشيته وهل عليّ بأن أخشاك من عار  
وفي هذا الاتهام غلو وإسراف . فالرجل حريص على أن تجري الأمور هونا ، وعلى  
الألمى تحتن قومه بالغساسنة ، فيضموا إلى أعدائهم عدواً أشد وأذكى ، والأمريش معه  
ما يضير .

ذلك رأيي يعضده ما كان من النابغة مع النعمان حين أراد أن يغزو بني حُسن بن حزام  
من حلفاء بني ذبيان ، فهما النابغة وحذره المغبة ، فأبى عليه . فأرسل النابغة يخبر قومه  
ويطلب إليهم أن يعينوا بني حُسن ويمدوهم . ففعلوا وهزموا غسان . وفي ذلك يقول النابغة :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يُريدُ بني حُسنَ بيسرّةٍ صادر  
تجّيبُ بني حُسنَ فإن لقاءهم كرهه وإن لم تلتق إلا بصابر  
هم منعوا وادي التمرى من عدوهم بجَمْعٍ مُبِيرٍ للعدو المكاثِر

فالنابغة ليس عندما رموه به ، ولكنه يريد لأهله الأمن فيما لا ضير عليهم فيه ،  
حتى إذا ما رأى الخطب يلمّ بساحتهم كان لهم نعم الرأي والمشير .

غير أنه من الحق أن نذكر أن هذه الصلة — أي صلة النابغة بهذا البلاط وذاك —  
كانت لشيء غير ما تحدثنا فيه .

فالنابغة — كما يقولون — أول من كسب بالشعر ، وأنه ذاق طعم الصلات والمنح ،  
ورأى مقامه في البلاطين ، مشفقاً مجاباً على حد قوله :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أشفع في أموالهم وأقرب



فزاده هذا وذاك حرصاً على الحرص في التمسك بأهداب هذا اللون من الحياة  
وقد سلك من أجل هذا المزيد من الحرص غير الجَدَد ، فلم يأمن بعض العثرات .  
فأسرف النابغة في مديحه ، لمكان هذا الإسراف في الحرص من نفسه . تحس شيئاً من هذا  
في مثل قوله :

|                               |                                     |
|-------------------------------|-------------------------------------|
| فتلك تباعني النعمان إن له     | فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد |
| ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه | ولا أحشي من الأقوام عن أحد          |
| إلا سليمان إذ قال إلا لسه له  | قسم في البرية فاحدوها عن الفند      |
| وخيس الجن إني قد أذنت لهم     | يبنون تدمر بالصُّحاح والعمد         |
| فمن أطاعك فانفعه بطاعته       | كما أطاعك وادله على الرشد           |
| ومن عصاك فعاقبه معاقبة        | تنهي الظلوم ولا تقعد على صمد        |

(الضم : الدل والفيظ)

وأسرف في الاعتذار ، لمكان هذا الإسراف في الحرص من نفسه ، وذلك كما في قوله :

أثبتت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زار من الأسد  
مهلاً فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد  
وكشف عن طمعه في الأصنام وتحرقه للعطايا في مثل قوله :

هذا الشناء فإن تسمع به حسناً فلم أعرض أبيت اللعن بالصفد

لهذا انزلق النابغة ولم يمسك عليه لسانه فيصرفه فيما يحفظ له ما يريد مع أنفة لا تقطع  
الصلة ، ورفعة لا تسد عليه باب المطلب .

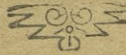
ولكنه الحرص يذل أعناق الرجال . هذا ما تؤمن به ولا يرجعنا عنه ما يعتذر به  
من أن الإسراف في المدح كان لإسراف الممدوح في البذل ، وأن الإسراف في الاعتذار  
كان لإسراف النابغة في الوفاء ، وأنه لو سكت على ما رُمي به عند النعمان مما قُذف به في  
شأن « المتجردة » كان هذا منه تسليماً بما قيل ، ثم إن من ورائه أعداء شامتين ، والشامتة  
تقتض المضاجع ، وتحمّل المشموت به الفوادح ، وإن الاماع الى العطية كانت تنمة لشكر  
أيادي المعطي عنده .



قد يكون لهذه شيء ولكنه لا يدفع كل شيء . ولو أن شاعرنا خَاصَّ نفسه من هذه الشوائب لاستقامت له رسالته واضحة ، وما وجد بعضُ قومه الى النسيْل منه سبيلاً . ولتفرَّغ جهده كله للواجب الذي حمّله على عاتقه . ولكنهما المال والجاه وما النفس بغالبة سلطانهما إلاّ على جهد ومعاونة . وهي إن غلبت ملكت مقود الجاه والعزة ، ولكن من سبيل لا ضيرَ معها عليها .

فهذا اللسان النابغي ، والحُصْف الذي عرفته عكاظ ، كانا يَضمنان لربهما رسالةً خالصة لا تشوبها هنات ولا يلحقها لوم . ولوجد الآذان أدنى الى الأخذ عنه ، والقلوب أدعى لما يقول .

فآفة الإصلاح أن يُسَطن بالناهضين به الظنون ، وتعلق بأردانهم الريب ، هنالك تلقى الآذان صمّاً ، والقلوب غُلفاً ، والجموع الى انقضاء ، والدعوة الى زوال .





## زهير بن أبي سلمى

في تلك الحقبة الصاخبة ، وبين الفتن الآشبة ، والمعارك الناشبة ، عاش زهير . فقد أظله عصر النابغة ، ومرَّ بك حديثه ، فصليته زهير ، ولم يكن منه ببعيد . فالنابغة قضى في نحو سنة ٦٠٤ وبعده بنحو سبع سنين ثوى زهير .

وفي غطفان ، قبيل النابغة ، نشأ زهير ، فكان منهم أخواله وأخوال أبيه . فصلته بهم قديمة . أقام بينهم أبوه من قبله ، وغزا معهم طيناً ، وحادوا عنهم بنعم وأموال لم يخصّوه منها بشيء ، فمضى عنهم بأمه إلى قبيلة مزينة . ثم عاد مع مزينّة حين همّوا بغطفان ، ولكنه ما لبث أن انفصل عنهم ، واستقرّ به المقام في ربوع غطفان .

وفي حجر بشامة بن عمرو الغطفاني شبّ زهير . فكفله هذا الخال ، بعد أن خلفه أبوه صغيراً .

وأصهر زهير إلى غطفان واتصلت أسبابه بأسبابهم ، وكاد بعضهم يعدّه في غطفان ، كما كادت عروته بأذينة تنفصم لولا باقية من نسب كانت لا تزال تذكره بأبائه . عرف زهير لغطفان أكثر مما عرف مزينة . ففي ديارهم شبّ وترعرع ، وفي ثراء خاله بشامة تقلب ، وبلسانه تأدّب .

تلمح ذلك العرفان للجميل في قوله لبني تميم ، وبلغه عنهم أنهم يريدون غزو غطفان :  
ألا أبلغ لديك بني تميم وقد يأتيك بالنصح الظنون  
(الظنون : الذي لا يوثق بما عنده ولا يكاد يصدق في خبر)

بأن يبيتنا بمحل حجر بكل قرارة منها تكون  
(حجر : في ثقب الحجاز . والقرارة : مستقر الماء في الوادي)

إلى قلبي تكون الدار منّا إلى أكناف دومة فالحجّون  
(قلبي : موضع . والحجون : موضع بمكة . ودومة : موضع)



بأودية أسافلهم رَوْضٌ وأَعْلَاهَا إِذَا خِفْنَا حُصُونُ  
نَحَلٌ سَهْلَهَا فَإِذَا فَزَعْنَا جَرَى مِنْهُمْ بِالْأَصَالِ عُونُ  
(عون : أي خيل)

بكل طُورِالَةِ وَأَقْبَ تَهْدِي مَرَاكِبَهَا مِنَ التَّعْدَاءِ جُونُ  
(الاقب : الضامر البطن . والنهد : الضخم . والتعداء : العدو . والمراكب : حيث يركل الفارس برجله .  
وجون : سود من العرق والضرب بالرجل)

إلى أن قال :

فِحَالِي فِي دِيَارِكَ إِنَّ قَوْمًا مَتَى يَدْعُوا دِيَارَهُمْ يَهْوَنُوا

\*

كَمَا تَتَبَيَّنُّهُ فِي قَوْلِهِ لَبْنِي سَلِيمٌ ، وَبَلَّغَهُ عَنْهُمْ مَا بَلَّغَهُ عَنْ بَنِي تَيْمٍ :  
رَأَيْتُ بَنِي آلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ أَصْفَقُوا عَلَيْنَا وَقَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ أَكْثَرُ  
(أصفقوا علينا : اجتمعوا علينا . وبنو أُمْرِئِ الْقَيْسِ : هوازن وسليم)

سُلَيْمٌ بَنُ مَنْصُورٍ وَأَفْنَاءُ عَامِرٍ وَسَعْدُ بْنُ بَكْرٍ وَالنَّصُورُ وَأَعْصُرُ  
(النصور : بنو نصر من هوازن . وسعد بن بكر ، من هوازن . وأعصر ، أبو غني وبهالة)

خَذُوا حَظَّكُمْ يَا آلَ عَكْرَمٍ وَاذْكُرُوا أَوَاصِرَنَا وَالرَّحْمَ بِالْغَيْبِ تُذَكِّرُ  
وإِنَّا وَإِيَّاكُمْ إِلَى مَا نَسُومُكُمْ لِمَثَلَانِ أَوْ أَنْتُمْ إِلَى الصِّلَحِ أَفْقَرُ  
إِذَا مَا سَمِعْنَا صَارِخًا مَعْجَتَ بِنَا إِلَى صَوْتِهِ وَرُقَ الْمَرَاعِلُ ضَمَّرُ

(معجت : صرّت مرًا سهلاً . وورق : جمع أوراق ، وهو ما كان لونه لون الرماد)

عَلَى رِسْلِكُمْ إِنَّا سَنَسْعُدِي وَرَاءَكُمْ فَتَمْنَعَكُمْ أَرْمَاحُنَا أَوْ سَتُسْعَدُرُ  
(ستعذر . يعني الرماح ، أي سيكون منها ما تعذرون فيه)

وَالْإِثْمَ فَإِنَّا بِالشَّرِيعَةِ فَالْإِلْوَى نَعْقُرُ أُمَمَاتِ الرَّبَاعِ وَنَيْسِرُ

(نيسر ، من الميسر والضرب بالقداح)

\*\*\*

ويكاد يلفتنا هذا عن أن نبصرك بالعصر ونزجي لك عنه طرفاً ، بل يكاد هذا  
الحديث يكون مدخلنا إلى ما نريد . ففيه الدليل على تحقّق موصول ، وأهبة لا تزول ،



لم يُعتمد معها للقوم سيف ، ولم تُعقد لهم حبوة ، ولم تُلاق عنهم شكة .

والى داحس والغبراء ، أم الأربعين ، كانت غارات هنا وهناك بين قبائل وشعوب ، ومع هذه وتلك شاع ما يشيع عادة مع الحروب من تحوُّل وتحدُّر ، وظهر العاثئون العاثئون فاستبيحت حرُمات ، وامتدت الأيدي للنهب ، وأكثر الناس الفساد في الأرض ، حين وجدوا الفرصة مواتية ، والسلطان عنهم في شغل .

\* \* \*

ذاك عصر ينشئ أحد شاعرين : شاعر يحمل نفساً قبست من تلك النار المستعرة ، له هنا ذحل وهناك ثأر ، يرى الحُكم للسيف ، والعزة في أن تُسكتب الغلبة لقومه ، فهو للحرب يذكي أوارها ، وينفخ في كيرها ، ويُعين عليها . وكذلك كان النابغة ، وكان من قومه في الوسط والشرف ، فيه مثل أنفثهم ، وله كحميتهم ، ويودُّ بجذع الأنف أن يُسكتب لهم النصر ، ومعه عزُّ الأبد . فعاش لذلك ، على ما بسطنا لك قبل في حياته .

وشاعر أقذته المنافرات ، وفزَّعته المشاحنات ، وبلبلت حسه الخصومات ، وحزَّنه ما آب اليه الناس وما انحطت اليه الصلات ، ولم يكن له الى ذلك قصدٌ الى النار ، ولا هو من غواة الحرب ودعاتها .

وكذلك كان زهير . بل كان فوق هذا ليس من غطفان بلحل الذي كان به النابغة . فهذا دمٌ مُزني في وعاء غطفاني ، والنابغة من غطفان دمًا ووعاء .

فزهير حين تراه لا يمنح للحرب ، فرجع الأمر في ذلك الى تلك النشأة التي أبعدته عن أهله فعاش في غطفان بهواه ، وقلبُه مع مزينة .

وغطفان ، وإن أنزلته بينها بلحل المُكرم ، فهي لم تنسَ مُزينة ، ولست أدلك على غير ما ذكرت لك قبلُ مثلاً ، من حرمان غطفان أبا سلمى حقَّه ، فيما غنمه معهم من طي .

هذه كانت صلة زهير بغطفان ، ولم تكن مزينة بالجاء المسموع والصوت البعيد . ولم يشغلها ما شغل غطفان ، ولم تعيش لما عاشت له .

أتاحت تلك الحياة لعقل زهير أن يُبين ، وضارَّه ما يضار كلَّ حكيم يشهد ما شهد



من فوضى واضطراب ، فيرجو للناس أمناً وسلاماً ، ترجع فيه الأمور إلى وازع نفسي يهديهم ، وحاكم يسوسهم وينهاهم .

أجل ، رُزق زهير هذه النفس العفة ، ومالت به الأيام هذا المال ، وعرف أن هناك خيراً يُستحبُّ ، وشرّاً يُجتنب .

هجا مرة آل حصن بقصيدته التي يقول فيها :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

فإن تكن النساء مُخَبَّاتٍ فَحَقُّ لِكُلِّ مُحَصِّنَةٍ هِدَاهِ

( أي إن قلوا إنهن النساء المُخَبَّاتُ في الحدود فينبغي أن يزوجن أداً )

ثم عرف بعد أنه لم يكن منصفاً حين فعل . فكان يقول : ما خرجت في ليلة ظلماء ، إلا خشيت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم .

\*

وغاضبته زوجته فأخذ يعاتبها في أسلوب الناصح ، ويُبَصِّرُها بيوطن الأمور في رفق الفيلسوف ، وهوادة الحكيم :

فيم حلتَ إنَّ لومَها ذُعرٌ أحميتَ لوماً كأنه الإبر

حتى إذا أدخلت ملامتها من تحت جلدي ولا يرى أثر

قلت لها يا أربعي أقبل لك في أشياء عندي من عافها خبر

قد يُقبل المال بعد حين على السمِّ وحيناً لهُلكه دبر

والمال ما خولَّ إلا له فلا بُدَّ له أن يحوزَه قدر

والجسد من خير ما أعانك أو صُلت به والجدود تُهتصر

قد يقتني المرء بعد عيَّلتَه تعيل بعد الغنى وتجتبر

( يفتني : يجمع : ويحقر : يستغنى ) .

والإثم من شر ما يصل به والبرُّ كالغيث نبتُه أمر

( أمر : كثير ) .

قد أشهد الشارب المعدَّل لا معروفه مُنكر ولا حَصِير

في فتية ليسي المآزر لا يَنسون أحلامهم إذا سَكروا



يشوون للضيف والعفاة ويوفون قضاء إذا هم نذروا

\*

وبمثل هذا من ضبط النفس ولزوم جانب الحلم يقول لها :

وقالت أم كعب لا تزُرنا فلا والله ما لك من مَنزَار

رَأَيْتَكَ عَسْتِي وَصَدَدْتَنِي فَكَيْفَ رَأَيْتَ عَرْضِي وَاصْطَبَارِي

فَلَمْ أَفْسِدْ بَنِيكَ وَلَمْ أَقْرَبْ إِلَيْكَ مِنَ الْمَمَّاتِ الْيَكْبَارِ

أَقِيمِي أُمَّ كَعْبٍ وَأَسْتَقِرِّي فَإِنَّكَ مَا نَزَلْتَ بِهَا بَدَار

ولا ننس أن زهيراً نزا النزوة أو النزوتين ، عدا فيهما طوره ، وفارق المعروف من

أمره . ذلك لما لم يتبين نهجه ، ولم يعرج إليه عرجه . من ذلك قوله يهجو عوف بن شماس :

من يتجرَّم لي المناطق ظالماً فيَجْرُرَ إلى شَأْوٍ بَعِيدٍ وَيَسْبَحُ

( يتجرم : يتجنى . والمناطق ، أي كلات السوء ) .

يَكُنْ كَالْحُبَّارِيِّ أَنْ أُصِيبَتْ فَمَثَلُهَا أَصِيبُ وَأَنْ تُفْلَتَ مِنَ الصَّقَرِ تَسْلَحُ

كِعُوفِ بْنِ شَمَّاسٍ يُرْسِخُ شَعْرَهُ إِلَيَّ أَسْدِي يَا مَنِيَّ وَأُسْجِحِي

( يرشح : يري . . وأسدي ، من السداد . وأسجحي : ارفني )

\*

وكقوله ، وقد أخش على الحارث بن ورقاء الصيداوي ، حين عدا في بني صيداء واستاقوا

إبلأ زهير ومعه غلامه يسار :

تَعْلَمُ أَنَّ شَرَّ النَّاسِ حَيٌّ يَنَادِي فِي شَعَارِهِمْ يَسَارُ

( التعار : العلامة . يريد أن يساراً صار عيباً عليهم يمدحون به )

وَلَوْلَا عَسْبُهُ لَرَدَدْتُمُوهُ وَشَرُّ مَنِجَّةٍ أَيْرُ مُعَارِ

( عسبه : نكاحه . والمنجعة : العارية ، ومعار ، من الماربة ) .

إِذَا جَحَّتْ نِسَاؤُكُمْ إِلَيْهِ أَشْطُ كَأَنَّهُ مَسَدٌ مُعَارِ

( جحجت : ماتت . أشط : أَمَط . والبد : الحبل ، والمعار : الفتول ) .

\*

قال زهير في بني صيداء ، غير هذا ، وكان محروباً لا يملك غير لسان يخوف به وينذر .

وأودُّ ألا تموتني الإشارة إلى شيء سبق فيه القول ، وهو أن زهيراً لم يجد غطفان له ،

فيما يحزبه من أمر ، كما لم تجد غطفان زهيراً منها فتقرض له عليها ما يفرض لغطفاني ،



وقدّمت لذلك مثلاً ما كان منها لأبي سُلمي . وأحب أن أضُم إلى سابقٍ لاحقاً فألفيتك  
إلى حديث زهير مع بني الصيداء ، وإغفال غطفان أمره ، وأن زهيراً أحسن هذا فجعل المردّ  
إلى شعره يحمله النّيل من عدوّه ، غير راجع في ذلك إلى عشير من خلفه يلوّح  
بهم ، ويخوّف بهستهم له .

\* \* \*

كان لزاماً على زهير أن يهيء الناس للسلم ، ويمكن للفضيلة في نفوسهم ، ويجعل للخير  
طريقه إلى قلوبهم . فقد عرف مع القوة الغدر ، ولن تبعث الحرب إلاّ حرباً . رأى أباه ظلم  
حقه ، ولو قد شاءه لكان مع غطفان في حرب ، ولما لم يملك عندّها حمل الذلة صاغراً .  
ورأى نفسه مع من يُغار عليهم فتساق إبّله ويؤسر غلامه ، ولو أنّ الأمور إلى أمّن  
لبسات قريّ عين ، ولم يذق مرارة العدوان عليه .

ورأى الناس حوله يجبر الشرّ شرّاً ، ولا يقوى شر على دفع شر .

وأحسن عوز الناس إلى رائد يرودهم ، ومبصر بالخير يبصرهم ، ووازع يزعمهم بالنصح  
والقول الجميل . وكانت جفوة غطفان إلى خمول مزينة أول شيء أعدّه لتلك الوجهة وهياءه  
لذلك السبيل . فجعل من تلك الدعوة ركنه الذي يشتد به حين يشتد الناس بالعشائر والقبائل .  
وما أن رأى الحارث بن عوف وهرم بن سنان يصلحان بين عباس وذيّان ، حتى هشت  
نفسه لذلك ، وانطلق لسانه بمعلّته الخالدة يرثب في السلم ، مندداً بالحرب وما معها من تنافر ،  
محبباً في الصلح ، ذاكرّاً ما إليه من تواد وتعاطف ، معزراً هذا كله بألوان من الحكيم ،  
وفنون من القول الحكيم ، وفيها يقول :

تداركتما عبساً وذيّان بعدما تقافوا ودقوا بينهم عطر منشم

( منشم : امرأة عطارة . تحاف قوم وغمّسوا أيدهم في عطرها . فخرجوا للحرب فقتلوا جميعاً  
فتشاءمت بها العرب ) .

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً بحال ومعروف من القول كسمل

( واسع : ممكن ) .

فأصليحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم



عظيمين في عُدَيَا مَعَدٍّ هُدَيْتَا \* ومن يَسْتَجِ كُنْزاً من المجد يعظم

وانظر الى قوله فيها ينفر الناس من الحرب ويذكركم بسوء المغبة :

فلا تَكُنْ منَّ الله ما في صدوركم ليخفي ومهما يَكْتُمُ الله يعلم  
يُؤَخِّرُ فيوضع في حساب في آخر ليوم الحساب أو يُعَجِّلُ فينتقم  
وما الحرب إلا ما علمتم وذُكِّمَ وما هو عنها بالحديث المرجم  
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتَضُرُّ إذا ضُرَّ يتموها فتضرم  
فتعركم عرك الرحي بثفلها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتم

(الغزال: جلد يحمل تحت الرحي. وامتعت الناقة كـ... اذ مل عليها كل عام، وذات أردأ النواج، والحمود  
عندهم أن يحمل عليها سنة وتحم سنة. وتنتم: تأتي بتوأمين.)

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحر عادٍ ثم تُرضع فتقطم  
(أحر عاد: طائر الناقة)

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم  
(أي تغل لكم دماً على - ين تغل قرى العراق من قفيز ودرهم)

وأنت ترى أن نفس المصلح زهير تجري في آيياته جريان الدماء في الشرايين، وتحس  
أن مقاطع البيت من خفقات القلب، وأن إيمان الداعي قد سبق الى قلوب السامعين  
فدانوا له، وعرفوا أنه رسول حق وداعية صدق.

وإن كنت قد عرفت للناطقة صارفاً نفسه عن رسالته وشغله ببلاط الحيرة يوماً  
والمناذرة يوماً آخر، على ما شفّعنا ذلك برأي، فأعرف زهير هذا الصارف الذي شغله بهرم  
ابن سنان. فعنى نفسه بمدائح، لم يغفل فيها غلوّ النابغة.

ولو عاش زهير ليشهد ما دار بين بعض ولد هرم وعمر بن الخطاب حين قال له عمر: أنشدني  
بعض مدح زهير أبأك. فألشده. فقال عمر: إن كان ليحسن فيكم القول قال: ونحن والله  
إن كنا لنحسن له العطاء. فقال: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.

أو شهد ما جرى بين بعض ولده وعمر حين قال له عمر: ما فعلت الحلال التي كساها  
هرم أبأك؟ قال: أبلاها الدهر. قال: لكن الحلال التي كساها أبوك هرماً لم يسلبها الدهر.  
أجل لو عاش زهير ليشهد هذا وذاك، وردّ إليه الأمر، زاد الى حيكسمة حكمة، تصرف



الشعراء عن أن يُشغَلوا إلاَّ بما للرأي والعقيدة، فهو أجدى عليهم وأبقى، وأحفظ لأسمائهم من أن تذكر في معرض الاستجداء والاستمناع.

\*

وقد أجد زهير في أصلته بهرم شيئاً مما وجدته للنابعة . فقد وجدت يدُ هرم في الصلح بين عبس وذبيان سبيلاًها الى قلب زهير ، وهو الذي يقدرُ المصلحين ويكبرُ صنيعهم . فخرَّكت بواث الإعجاب والإعظام من نفسه ، وذاق هرم حلاوة المدح على لسان شاعر الحكمة ، خفَّ له وأكبر صاحبته ، فسخت يده . ورأى زهير يدَ هرم اليه تطول يده فيما كان بين عبس وذبيان ، فخرى لسانه بشكره ، والشكرُ توجهه النعمة .

وما ندري أكان يقوى زهير على أن يصرف هرمًا عن مثل ما فعل بادىء ذي بدء ويلفته الى خير عام ، أو أنه وجد في شكر تلك اليد بمثل قوله :

قد جعل المُبتغون الخير في هرم      والسائلون الى أبوابه طرقاً  
إنْ تلقَى يوماً على علاته هرمًا      تلقى الساحة منه والندى خُلقاً  
وليس مانع ذي قربى وذي رحم      يوماً ولا مُعدماً من خابط ورقاً  
وبمثل قوله :

تراه إذا ما جئته مهلاً كأنك تعطيهِ الذي أنت سائله  
ما يثير أريحية هرم ويبسط يده للناس عامة . فيكون زهير في هذا جارياً في رسالته ، مادحاً هرمًا ليضمن للقاصدين والمعتفين باباً من الرزق لا يفاق دونهم رتاجه .  
وأنت عن هرم لا تقف بمدكسر ، تعرف له أياديه ، وقد كان من الأجواد المعدودين ، اختصَّ زهيراً بنضاره ، وخصَّه زهير بأشعاره .

وفي الحق إن كانت حرب داحس والغبراء ، وما جرَّت من بأساء وضرءاء ، أثارت غضبة زهير للدم المراق ، والنفرة والشتاق ، فقد كان كرم الكريم هرم ، وما حقن من دم ، وكسًا وأطعم ، مما استخفَّ زهيراً فجعل منه عنوان موضوع ثانٍ ، هو السخاء ، فقال زهير يدعو الناس الى كرم وجود ، كما دعاهم الى سلم وعهود . ضارباً المثل بمجود هرم في مثل قوله له :



إذا السنة الشَّهَاء بالناس أَجْجفت      ونال كرامَ المال في السنةِ الأكلُ  
 رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم      قَطِيناً لهم حتى إذا أَثْبَتَ البقلُ  
 هنالك إن يُسْتَخْوَلوا المال يُخْوِلوا      وإن يُسألوا يُعْطوا وإن يُيسروا يُغْلُوا  
 على مُكْثَرِهِمْ حقٌّ من يُعْترِيهِمْ      وعند المُقْلِين السَّامِحَة والبذل  
 فأنت ترى زهيراً لا يشكر يداً خُص بها ، بل يشكر يداً عامّة ومُعرفاً جامعاً ، فهو لسان  
 المُقْلِين لدى المُكْثَرِينَ ، يكاد يُفرض لهم حقوقاً في أموالهم ، ويُشرك القلوب لِعَوْنِهِمْ  
 في غير إِذْلال ولا استِغْفار.

\*

هذا ما نَظَنه ، ولا نَرانا مُبْعِدِينَ أو مُقْلِينَ ، وهكذا كان زهير على السَّلم وليّاً  
 وللسَّادة مَسْخِياً ، جعل من داحس والغبراء في الأولى سَبِيحاً ، ومن جود هَرَم في  
 الثَّانِيَةِ دَلِيلَهُ.

\*

والآن فلنودَّع زهيراً لنأخذ في سيرة عنترة ، فهو رابع أربعة اختَرناهم صورة للعصر





## عَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادٍ

في بني عبس ، وعلى فراش شدّاد بن عمرو — في الراجح من الروايات — وُلد عَنْتَرَةُ تَرَامُهِ أُمَةٌ حَبَشِيَّةٌ تَدْعَى زَبْسِيَّةً .

ويقولون إن شدّاداً سباهها في بعض خرجاته مع قومه ، فأحملها عَنْتَرَةُ . وغلبت صبغتها صبغة شدّاد . فاستقبل عَنْتَرَةُ الحَيَاةَ بوجه كوجه أُمّه أسود .

ولما قضى شدّاد منها وطّره أرسلها ، فعصّلت من غيره بينين عبداً سوداً ، منهم حنبل ، ولم يذكر الناقلون لهم أباً معروفاً . غير أن سعي أخيهمْ عَنْتَرَةُ في إلحاقهم بعبس ، كما سيأتيك نبأ هذا بعد ، يكاد يقفنا على أن هذا الأب الضالّ عربيٌّ لا عبدٌ حبشيٌّ ، وأن هذا اللون كسبه الإخوة من المعين الذي كسب عَنْتَرَةُ منه سواده .

فَعَنْتَرَةُ إلى عبس أمره ، وُلدَ فيهم عبداً ، ثم استلحقوه على نجابة وبلاء . وشأن العرب استعباد أولاد الإماء ، فإذا أنسوا لهم ذكراً ونباهاة ، ادّبعاهم آبائهم ، ووصلوا نسبهم بنسبهم ، فكانوا من القبيلة طلقاءً أحراراً ، لهم حقوقهم غير مقطوعة ولا ممنوعة .

وعَنْتَرَةُ لِدَّةٌ للنابغة وزهير ، شهد عصرهما ، وأنساه الأجل أعواماً بعدهما ، فعنصر إلى نحو سنة ٦١٥ فيما يقولون .

وشهد كما شهدا داحس والغبراء ، ورثى فيها مالك بن زهير العبسي بقوله :

|                              |                           |
|------------------------------|---------------------------|
| فله عينا من رأى مثل مالك     | عقيرة قوم أن جصرى قرسان   |
| فليتها لم يجرى نصف غلوة      | وليتها لم يُرسلا رهان     |
| وليتها ماتا جميعاً بيلدة     | وأخطاهما قيس فلا يُريان   |
| لقد جلبا حيناً وحرماً عظيمة  | تبديد سراة القوم من غطفان |
| وكان فتى الهيجاء يحمي ذمارها | ويضرب عند الكر كل بنان    |



غير أنه شارك فيها بسنانه بعد لسانه ، يقول ويصوّل . فكان الشيخان زهير والنابعة إلى جانب غطفان ، وهو إلى عبس في جانب آخر . وساقته الفتوة مساقها ، وأقحمتها مقاحها ، فعاش بين المعارك صائلاً حتى إذا ما فصل منها وسكن إلى نفسه واتاه خاطر الشاعر فقال .  
فتراه إذا ما نفّض اليد من إغارته على جهينة يقول :

سألوأنا جهينة كيف باتت      تميم من المخافة في ربأها  
رأت طعني فولّت واستقلت      وسمر الخطّ يعمل في قفأها  
وما أبقيت فيها بعد بشر      سوى الغربان تحجل في فلاها  
ثم تسمعه يصف لك بلاءه في يوم شعب جيلة ويذكر جلده في قوله :  
أرى لي كل يوم مع زماني      عتاباً في البعاد وفي التّداني  
يريد مذلي ويدور حولي      بجيش النائبات إذا رأي  
كأنّي قد كبرت وشاب رأسي      وقلّ تجلّدي ووَهَى جناني  
ألا يادهر يومي مثل أمسي      وأعظم هيبة لمن التقاني  
إلى أن يقول :

وَقَرْنُ قد نركت لدى مكرٍ      عليه سبائباً كالأرجوان  
تركت الطير عاكفة عليه      كما تردي إلى العرس الغواني  
وتمنعن أن يأكلن منه      حياة يد رجل تركضان  
ويتجه إلى عبلة ابنة عمه يستهويها بموقفه مع الأعجام قائلاً :  
سلي يا عبلة الجليّمين عتاً      وما لاقت بنو الأعجام منّا  
أبدنا جمعهم لما أتونا      تموج مواكب أنسا وجنّا  
وراموا أكلنا من غير جوع      فأشبعناهم ضرباً وطعنا  
ويغير على بني الحريقة فينطلق لسانه فآخرأ مندداً :

حكم سيوفك في رقاب العدل      وإذا نزلت بدار ذلّ فارحل  
وإذا الجباب نهأك يوم كربهة      خوفاً عليك من ازدحام الجحفل  
فاعرض مقاتله ولا تحفل بها      واقدم إذا حقّ اللقاء في الأوّل



الى أن قال :

ولقد نكبت بني حريقة نكبة  
وقتلُ فارسهم ربيعة عنوةً  
وبمثل هذا يصف يومه مع بني ضبة :

عفت الديارَ وباقي الأطلالِ  
ريحُ الصبَا وتقلبُ الأحوالِ  
ويقول :

وأنا المنية حين تشجر القنا  
والطعن مني سابق الآجال  
ويقول :

وسلي عشائر ضبة إذ أسامت  
بكرُ حلائلها ورهط عقال  
وقريب منه قوله في وقعة كانت بينهم وبين زبيد :

لقد وجدنا زبيداً غير صابرة  
يوم التقينا وخيل الموت تستبقُ  
ومنه :

ما عبست حومة أهيجاء وجه فتى  
إلاَّ ووجهي إليها باسم طلقُ  
وله في يوم المصانع :

إذا كشف الزمان لك القناعا  
ومدَّ إليك صرفُ الدهر باعا

وفي يوم المصانع قد تركنا  
أقنأ بالدوابل سوق حرب  
حصاني كان دلال المنايا  
وسيفي كان في الهيجا طيباً  
وله يتوعد بني شيبان :

ويلٌ لشيبان إذا صبحتُها  
وأرسلت يعضُ الظبا شعاعها  
وخاض رمحي في حشاها وغدا  
يشكُّ مع دروعها أضلاعها

فأنت تجد بين شعر عنترة — الخالص له والمصنوع على لسانه — الكثير من ذكر



هذه المواقف . وقد عرفت ، مما سقنا إليك قبل ، العصر واضطرابه ، وتلك الخصومات التي ملأت الأيام والأعوام عراكاً ونضالاً .

\* \* \*

ولنا عن عنترة في هذا النضال ونصيبه منه حديث . من الرأي أن نسبقه برجعة إلى الوراء قليلاً لنتمم لك الحديث عن عبودية عنترة . فقد علمت شيئاً عن عادة العرب مع أولاد الإماء ، وعلمت أنهم لا يستحقونهم إلا لنجاسة ونباهة ذكر .

وكذلك كانت الحال مع عنترة . فقد ظلَّ عبداً يوعى إبل أبيه صدرأ من شبابه لا يؤوبه له ولا شأن له ملحوظ . حتى أغارت مغيرة على عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلأ لهم ، وعرض لهم العبيسون ، وعنترة بمعزل . فسأله أبوه أن يكفر . فما كان جواب عنترة إلا أن قال : العبد لا يحسن الكفر ، إنما يحسن الحلاب والصر . وكان ظن الأب بالابن أنه على فتوة وقوة ، فقال له : كره وأنت حر . فكرَّ عنترة وهو يقول :

أنا الهجين عنترة كل امرئ يحمي حره .

وأبلى في يومه هذا بلاء حسناً . فادّعاه أبوه واتصل بعبس نسبته .

بهذا أو مثله خلف عنترة العبودية إلى الحرية ، وعرفته العرب شجاعاً جلدأ ، وعرفوا مكانه بين الصفوف ، شهد له بها قيس بن زهير حين وقف عنترة تميم يوم جرت في إثر عبس وقد ولّت ، خامى عن الناس فلم يُصَب مدبرأ ، فسأ قيساً ما صنع عنترة فقال : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء .

\* \* \*

طلب الشجعان عنترة وطلبهم ، وكاد الأمر يكون خصومة بينه وبين منافسيه لا حرباً تعني القبائل والعشائر .

تلمس شيئاً من هذا فيما سقنا لك من شعره في تلك المواقف ، وفيما سنعرض عليك منه ، فتراه يشيد بموقفه ، ويمدّد ما كرمه ، ثم يذكر عبساً تنمة للحديث دون إفاضة عنهم . فمن قوله يصف يوماً له :



أعاذل كم من يوم حرب شهدته له منظر بادي النواجد كالح  
ثم يلتفت الى قومه فيقول :

فلم أرحباً صابروا مثل صبرنا ولا كاخوا مثل الذين نكافح  
ولكنه لا يلبث أن يعود الى نفسه فيقول :  
إذا شئت لأقاني كي مدجج على أعوجي بالطعان مسامح

\*

ومن قوله في يوم له آخر :  
ألا أبلغ بنى العُشراء عني علانية فقد ذهب السرار  
قتلت سرائكم وخسئت منكم خسيلاً مثل ما خسيل الوبار  
ثم يذكر قومه فيجمع بينه وبينهم ويقول :  
ولم تقتلكم سرّاً ولكن علانية وقد سطع الغبار

\*

ومن قوله أيضاً :  
وقرن قد تركت لدى مكرّ عليه سبائب كالأرجوان  
تركت الطير عاكفة عليه كما تردي الى العرس البواني  
فا أوهى مراس الحرب ركي ولكن ما تقادم من زمني  
ويريد أن يتم الحديث عن نفسه بإشارة الى قومه فيقول :

وقد علمت بنو عبس بأني أهش إذا دعيت الى الطعان  
ونعم فوارس الهيجاء قومي إذا علقوا الأعنة بالبنان  
هم قتلوا لقيطاً وابن حُجر وأردوا حاجباً وابني أبان

\*

ولا يزيد أن لشق عليك ، ولنجعل قوله في نועد النعمان آخر ما نسوق له في هذه  
الباب ، فتراه يبدأ بقومه فيقول :

لله در بني عبس لقد نسوا من الأكارم ما قد تنسل العرب  
ثم سرعان ما يُشني بنفسه فيقول :



قد كنت فيما مضى أرعى جهالم واليوم أحمي جهام كلما نكبوا  
اليوم تعلم يا نعمان أي فتى يلقى أخاك الذي قد غره العصب  
وينسى قومه فلا يعود اليهم الى آخر ما يقول :  
والنقم يوم طراد الخيل يشهد لي والضرب والطعن والأقلام والكتب

\* \* \*

هذه أمثلة من شعر عنتره في تلك المواقف . ويكاد يكون ما سقنا صورة لما لم نسق .  
وانك لتقرب أن تحس ، أن الأيام أيامه ، وأن الحرب حربه ، وأن الكركر كركه ، وأن القوم  
من ورائه يحرون في إثره ويتسمون خطاه .

فعنتره لم يفعل مع هذه الأيام أكثر من أن يسجل لنا تلك الحوادث ، أو قل من أن  
يسجل لنا غدواته وروحاته ، وما فعلت كفه ، ولم سبي ولم قتل ، في إسهاب مكرر وإطالة  
معاودة . ويكاد يكون ما يقال هنا يقال هناك ، مع تحوير وتغيير .

وقومه في كل ذلك لا يذكرون إلا ليضيف من الفخر بهم الى الفخر بنفسه ، وإلا حين  
يذكر عنتره أنه يصف حرباً حشدت لها جموع ، لا برازاً برز له خصمان .

\*

ونحب أن نعرف أن عنتره كان له من قومه شكايه ، وفيهم عتب ، جهر بذلك في غير  
موضع . فهو الذي يقول :

أعاب دهرأ لا يلين لناصح وأخني الجوى في القلب والدمع فاضحي  
وقومي مع الأيام عون على دي وقد طلبوني بالقنا والصفائح  
وهو القائل :

إذا فاض دمعى واستهل على خدي وجاذبني شوقي الى العلم السعدي  
أذكر قومي ظلمهم لي وبغيهم وقلة إنصافي على القرب والبعد  
بنيت لهم بالسيف مجداً مشيداً فلما تناهى مجدهم هدموا مجدي  
وهو القائل في قومه وقد خرج عنهم غضبان بماله وإخوته :

لا تقتض الدين إلا بالقنا الذبل ولا تحكم سوى الأسياف في القلل



ولا تجاور لثاماً ذل جارهم وخلصهم في عراض الدار وارحل  
وهو الذي توعدهم بقوله :

أظلاماً ورمحي ناصري وحسامي وذلاً وعزبي قائدي بزمامي  
ولي بأساً مفتول الذراعين خادر يدافع عن شباله ويحامي  
وإني عزيز الجار في كل موطن وأكرم نفسي أن يهون مقامي  
هجرت البيوت المشرفات وشاقي بريق المواضي تحت ظل قمام  
سأرحل عنكم لا أزور دياركم وأقصدها في كل جنح ظلام  
هذان شيئان جرّ أحدهما الآخر . فقوم عنتره عرفوه عبداً ، وانتبذهم هو إلى  
رعية الإبل لا يشارك فيما يشارك فيه الأحرار ، ووجد من الحاجة إليه وسيلته إلى  
إن يُعَدَّ من أحرارهم فكان لها نهازاً ، واحتملوه هم على غير رغبة منهم ، فكانت لهم إليه  
لفتات أحسن منها عنتره الانتقاص مما نال . وبظني أن الألسنة لم تبرا من وخزه ، والعيون  
لم تقف عن غمزه . وأحسن هو أنه لا يزال بين الناس عبداً ، وأن ما ناله كلمة لم تنزع إيماناً  
سكن القلوب ، وعقيدة أشربتها النفوس . فليدعه أبوه إليه ، وليتصل النسب بالنسب .  
ولكن الناس على دين قديم نشأهم على امتهان العبد وانتقاصه ، وجرّاهم على أن يعدّوا  
تلك صفة لا فكاك منها إلى يوم الدين .

هذا شيء وجدته عنتره فوجد له ، وجرى لسانه به شاكياً فيما شكى ، ألم تسمع  
إلى قوله :

لئن أكن أسوداً فأمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء  
ولكن تبعد الفحشاء عني كبُعد الأرض من جو السماء  
والى قوله :

تُعيّرني العيدا بسواد جلدي ويبيض خصائلي تمحو السواد  
ثم إليه يخاطب قومه :

يعيبون لوني بالسواد وإنما فعالمهم بالخبث أسود من جلدي  
وتعال إلى قوله :



ان كنتُ في عدد العبيد فهمتني فوق الثريا والسماك الأعزل  
أو أنكرت فرسان عبس نسبتي فسنان رحي والحُسام يُقر لي  
فأنت ترى عبساً لم تعد فيما منحت القول الذي لم يؤيده فعل ، وأحس عنترة معه  
أنه غريب عن القوم وإن كان منهم فالتفت الى نفسه ، وكان لهذا أثره في خصه نفسه بأكثر  
شعره ، والإشادة بما فعلت يده في الكثير مما قال .  
وكذلك جرته المهانة يلقاها في نادي قومه إلى أن يكون على ما وصفنا لك ، وأن يصبغ  
شعره بهذه الصبغة .

وكان لهذا النزاع بين عنترة وقومه بقية ، فقد كان له إخوة ، شأنهم من شأنه ، الأب  
من جنس الأب والفراس هو الفرار . وكان بقاؤهم على العبودية شيئاً يقض عليه مضجعه  
ويهيج حزنه . وما لهم بلائاً كبلاته يستلحقون به ، وماله هو صبر على ما يلحقه ببقائهم تحت  
سمعه وبصره يسامون ما تسام العبيد . وكأنه فطن إلى أن حرته ينقصها أن يرى إلى جانبه  
إخوته أحراراً ، فيقطع بذلك دابر المعرفة ، ويوصد في وجوه عائليه الباب إلى عيبه .  
فاحتال لذلك بأن أوحى إلى خير إخوته عنده ، وكان يدعى حنبلا ، أن يروي مهره من  
اللبن ، وأن يمر به عليه عشاء في نادي قومه . فاذا ما قال له عنترة : ما بال مهركم مهزولاً ضامراً ؟  
أهوى حنبل بالسيف إلى بطن المهر فضربه . فيظهر اللبن .  
ولما كان ما أراد عنترة قال :

أبني زبيبة ما لمهركم متخدراً وبطونكم عُجُجُرُ  
ألكم بإيغال الوليد على إثر الشياه بشدة حُسُرُ  
وينقل الرواة أن الأمور لم تجر إلى ما رجا وأمل ، فاستلاطهم نفر ونفاهم نفر .  
\* \* \*

وبعد هذا يجيء حديث عبله ، ابنة العم التي شغف بها عنترة وأكثر من القول فيها ،  
وهل ترى القوم حبسوها عنه ومطلوه في أمرها إلا لهذا الذي صحب عنترة من المهد ،  
ولم يبرئه منه أعداء عن فضل وبلاء .

واتجه عنترة إلى عبله يحدثها عن فتوته وإثخانته في الأعداء . وقديماً استهوت الغواني  
شجاعة الشجعان . فقال لها :



فلو أن عينيك يوم اللقاء ترى موقفي زدت لي في المحبة  
وأفرح بالسيف تحت الغبار إذا ما ضربت به ألف ضربه  
وتشهد لي الخيل يوم الطعان بأني أفرقتها ألف سره  
ثم يدرك أن هناك شيئاً آخر غير هذا يحسن به أن يجمسه في عينها ، فيقول :  
وإن كان جلدي يرى أسوداً فلي في المكارم عز ورتبه  
ويعود إليها ببلائه في يوم له مع بني عامر فيقول :

سلي يا عبل عنا يوم زرنا قبائل عامر وبني كلاب  
وكم من فارس خلّيت مُلْقٍ خضيب الراحتين بلا خضاب  
يحرك رجله رعباً وفيه سنان الرمح يلع كالشهاب  
وكان عبلة كانت على دين قومها ، فلا يستجيب قلبها لتلك الصرخات ، ويرجع بها عنه  
شعور بالنقيصة تلوث أردانها إن وصلت حبلاً بحبلها ، فتغاض له ، وتأخذ عنقرة العزة فيقول :

سلا القلب عما كان يهوى ويطلبُ وأصبح لا يشكو ولا يتعجبُ  
صحا بعد سكرٍ وانتحى بعد ذلّةٍ وقلب الذي يهوى العلا يتقلبُ  
إلى كم أداري من تريد مذلتني وأبذل جهدي في رضاها وتغضبُ  
عَبْسِيَّةُ أيامُ الجمال قليلة لها دولة معلومة ثم تذهب  
فلا تحسي أنني على البعد نادمٌ ولا القلب في نار الغرام يعذبُ  
وقد قلت إني قد سلوت عن الهوى ومن كان مثلي لا يقول ويكذبُ  
هجرتك فامضي حيث شئت وجرّبي من الناس غيري فالبيب يجربُ

والحديث عن عبلة يطول . وهمّنا منه هو أن القوم جعلوا من هوى عنقرة بها إحقاقاً  
لما يريدونه عليه . فأرسلوه على الأعداء غازياً ، وحملوه عبء الدفاع والذود عن حمائم ،  
وكانوا بعد هذا بين إقدام وإحجام في أن يزفوها إليه . فقد ولدت على فراش غير الفراش  
الذي ولد عليه . ولهذا قدره وشأنه عندهم . فأتقوا عليه وعنّوه بطلب العصافير مهراً لها .

\* \* \*

شيء واحد كان لعنقرة أن يلتفت إليه ويخضه بالقول ، هو ذاك العنت الذي أرقه به



قوم وآذوه ، وتلك الروح التي فرقت بين الناس في المهاد جعلتهم عبيداً وأحراراً ، وذلك الظن بأن العبد إلى عزلة لا يقرب مواطيء أقدام سادته .

لقد ذاق عنترة من صنوف الإذلال كثيراً ، ذاق ذلك في نفسه ، وذاقه في إخوته ، وذاقه في صلاته بعبلة . فماذا فعل ! وبأي لون من القول ذاد عن تلك الكرامة التي هدرها قومه . لا تجد الرجل إلا ضعيفاً مستخدياً يرى رأي القوم فيه ، ويحاول في غير توفيق أن يجعل من شجاعته وإقدامه ما يمحو عنه ما اتصل به عن أمه ، فتراه يقول :

إني أمرؤ من خير عبس منصباً      شطري وأحبي سائري بالمنصل<sup>(١)</sup>  
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحمت      ألفت خيراً من معممٍ مخول

\* \* \*

فأين لعنترة — وكان له إلى لسانه يدٌ باطشة — شعره في الدفاع عن العبودية وحمل لواء المساواة بين الأفراد ؟

ومن يحمل لواء المساواة بين الأجناس إذا لم يحمله أمثال عنترة ؟ بل عنترة به أوّل . هذه هي رسالة عنترة التي فرط فيها .

أما قوله في تلك المعارك الناشبة ، التي سيق إليها سوقاً ، والتي كان فيها حرباً مع من لا يحملون له ولاءً ، ولا يكادون يقرّون له بينهم نسباً ، فما هو بشيء .

وإن عددنا له بعضاً مما كان عليه ، فأين غيره ، وقد كان مجال القول فيه فسيحاً ، والفرصة مواتية ، والخطب خطبه ، في نفسه وأمه وإخوته ، فحمله همّاً لم يدعه . وكأني به قد مضى حين رماه ابن جابر النبهاني فقطع مطاه ، فقال عنترة مخاطباً من حسبه قومه :

وإن ابن سلمى عنده فاعلموا دمي      وهيات لا يرجي ابن سلمى ولا دمي

\*

تُرى لو بعث عنترة ورأى كيف نامت عبس عن الأخذ بثأره ، وإن ابن جابر عاش لا يخشى وائراً ، أما كان يرى أنّما لم نظلمه ، وأنه ظلم نفسه حين ترك ما كان له إلى غيره ؟

(١) يقول : إن أباه من أكرم عبس ، وأما عن أمه ، ففي شجاعتها ما يبرّض عليه ما فقده فيها .



# حَسَّان

## ابنه ثابت

خير ما تقدّم به لحسان بن ثابت كلمة الأصمعي : « الشعر تكيدٌ بابه الشرُّ . فإذا دخل في الخير ضعف » . هذا حسّان بن ثابت خل من خول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره ، ثم كلمة له خرى من هذه وإليها : « شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه في الإسلام » .

ما نريد بهذا أن نعرف أين أجاد حسان وأين قصّر ، فتلك دراسة أخرى ، وما بنا أن نلتفت عما بدأنا فيه إلى رأي بيننا تخلفه عن الغاية . ولكن عناناً أن نعرض لمثل هذا الرأي فنذكر به كيف شغل الناس بحسّان . فرأيانهم يقدرونه على قوله لا على رأيه ، ويستمعون إليه استماعهم إلى الزامر ينفخ في قصبته ، أما أنه شاعر يحمل إلى القول الرأي والفكرة فما بهم إليه التفاتة .

\*

وقد أتاك أنّ « حساناً » ضعه عهدان ، عهد يسبق الإسلام ، وعهد يبدأ به . وقد تحب أن تصليك بنسب حسّان وعشيرته قبل أن نحدثك حديثه هنا وهناك . فهو ابن ثابت بن المنذر بن حرام ، وحرام من النجار ، والنجار من الخزرج . وأمه القريعة بنت خالد بن قيس ، خزرجية . وفي يثرب وُلد ، وفيها نشأ وشبَّ ، يغذوه جاه أبيه وراثه . وإذا ذُكرت الخزرج ذُكرت أوس ، فقد شهدت لها يثرب حقبة استشرى فيها الشر وانطوت فيها الصدور على ترات ، والنفوس على حسائلك ، والقلوب على بغضاء . وكان مع الأوس شاعرهم قيس بن الخطيم ، وما هو بأوسيٍّ إن لم ينل من الخزرج بلسانه ، وينبري لهم ببيانه . وما رجت الخزرج حساناً ، إلاّ ليدفع عنها ويذود دونها .



فوقف حسان لتقيس يهجره ويهرون من شأنه ، علَّه أن يذل ويخزي ، فيكتب حسان  
لقومه نصراً حيث مجاله ومصاله .

نذكر له من هذا قوله :

لعمراً إليك الخير يا «شعث» ما نبا عليّ لساني في الخطوب ولا يدي  
(شعث ، يريد : شعثاء ، اسم المرأة التي كان يتنبأ بها )

لساني وسيفي صارمان كلاهما ويبلغ ما لا يبلغ السيف منذودي  
( المذود : اللسان )

وإن أكْ ذاملٌ كثير أجده به وإن يعتصر عودي على الجهد يُحمِد  
فلا المألُ ينسني حياتي وحفظتي ولا وقعتُ الدهرُ يفلُمن مبردي  
وإني لمعط ما وجدتُ وقائل إلى أن يقول :

فلا تمجلن يا قيس وأربعٌ فإنما قصارك أن تلقى بكل مهنّد  
( أربع : قب . قصارك : جهرك )

حسام وأرماع بأيدي أعزة متى ترهم يابن الخطيم تبلّد  
ليوث لها الأشبال تحمي عرينها مداعيس بالخطى في كل مشهد  
( مداعيس : طاعنون )

فقد ذقت الأوس القتال وطرّدت وأنت لدى الكنّات كل مطرّد  
( الكنّات : السقائف . يشير إلى جهنّه )

فناغر لدى الأبواب حوراً نواعماً وكحلّ ما قيك الحسان بإثمّد  
نفتكم عن العلياء أمّ لئيمة وزنّد متى تقدح به النار يصد  
( يصد : يصوت ولا يورى )

كما نذكر له قوله :

ما بال عيني دموعها تكفّ من ذكر خود شطت بها قذف  
فغادروني والنفس غالبها ما شقّها والهموم تعكف



دع ذا وعدَّ القريض في نقر يدعون مجدي ومدحتي شرف  
إن أدعُ في المجد ألقهم سلفاً أهل فعال يبدوا إذا وُصفوا  
وفيه يقول :

أو ندعُ في الأوس دعوة هرباً وقد بدا في السكتيبة النصف  
كنتم عبيداً لنا نخولكم من جاءنا والعبيد تُضطعف  
كيف تعاطون مجدنا سفاً وأنتم دعوة لها وكف  
(الوك : اليب والنص)

شانكم جذم وأكرمنا جدُّ لنا في الفعال ينتصف  
وكم قتلنا من رأس لكم في فيلق يجتدى له التلف  
ومن لئيم عبد يحالفكم ليست له دعوة ولا شرف  
وبقيت المهاجاة بين الشاعرين ما بقي الخاف بين الحيسين ، فلما ضمَّ الاسلام منهما  
ما تفرق ، ورأب ما تصدع ، وأصبحوا الأنصار ، بعد أن كانوا أوسيين وخزرجيين حمل  
حسان في عنقه هذه الأمانة ، وعاش ينظر لقومه بين جمهور المسامين ، يخاف عليهم الحيف ،  
ويود لهم النصفة . وكان يعلم أن القبائل العربية ، وإن جمع الاسلام بين قلوبها وألسنتها ،  
إلا أنها لم تخلص من بقية من هوى يتصل بأصولها وأجناسها ، والأمـر سائر الى رأس  
ومرءوس ، ومع هذا الطمع والخشية . فرأينا « حسان » يخفق قلبه بما فيه لقومه ، ويشفق  
أن يتسحيّف حقهم متحيف ، أفتراه وهو يرثي رسول الله صلى الله عليه وسلم تحيش في  
نفسه الخواطر فيقول :

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملاحد  
( سواء الملاحد : وسطه )

ضاق بالأنصار البلاد فأصبحوا سوداً وجوههم كلون الأئـمـد  
ولقد ولدناه وفينا قبره وفضل نعمته بنا لم يُجحد

\*\*\*

هذا جانب من حياة « حسان » عرفت فيه بلائه ، رأينا أن نصل حلقاته ، فنجمع



ما كان منه في الإسلام إلى ما قبله ، إذ الأمر أمر قوم بن انقسام وتضام ، وحياة شاعر شارك في الحالين ولبس لكل لباسه .

وهناك جانب آخر عاش له حسان مناخاً مناضلاً ، بدأ بهجرة الإسلام من مكة إلى يثرب ، وكان إلى جنبه فيه كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة ، فكانوا ثلاثة لثلاثة قرشيين في مكة ، هم عبدالله بن الزهري ، وأبوسفيان بن الحارث ، وعمر بن العاص .

القرشيون ينالون بألسنتهم من تلك الرسالة الجديدة عليهم ويعرضون لصاحبها عليه السلام . واليثريون ، وعلى رأسهم حسان ، يدفعون ويذودون .

ولقد شبَّ « حسان » على الذيادة وأبلى فيه ، فلما جاء الإسلام يثرب ودان هو به ، نصب نفسه للدفاع عنه والنَّيل من خصومه ، فتبّع سادة قريش وزعماءهم ، ومشى مع الوقائع والأيام يشيد بمواقف المسلمين فيها ، ووصل لسانه بأذنيه ، فادبَّ إلى سمعه قول يمس المسلمين ، إلا انطلق معه لسانه بما يملك .

فهو مرة يهجو أباسفيان فيقول :

لقد علم الأقوام أن ابن هاشم  
ومالك فيهم محتد يعرفونه  
هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد  
فدونك فالصق مثل ما لصق القرد  
( القرد : الفراد )

وأبلغ أباسفيان عني رسالة  
وإن سنام المجد من آل هاشم  
وما ولدت أبناء زهرة منهم  
ولست كعبّاس ولا كابن أمه  
وأنت زعيم نيط في آل هاشم  
( الزعيم : الدعوى )  
وإن امرأ كانت سمية أمه  
( سمية : أم أبي سفيان . وسمر : أم أبيه )  
فمالك من إصدار عزم ولا ورد  
بنوبنت مخزوم ووالدك العبد  
كرام ولم يقرب عجائزك المجد  
ولكن هجين ليس يورى له زند  
كما نيط خلف الراكب القدح الفرد  
وسمراء ، مغلوب إذا بلغ الجهد

\*

وحينما يهجو الوليد بن المغيرة :



إذا نسبت يوماً قريش تفتكم وإن تنسب شجع فأت نسبيها  
وإن التي ألفتك من تحت رجلها وليداً لمهجان الغداء خبوها  
(مهجان : رابعة . والغداء : السخل الدمار . وخبوها ، أي تحب في إثرها )  
وأأمك من قسر حباشة أمها لسمرأ قهم آسن البول رطيبها  
(قسر : من بحلة . وقهم : أبوحى )

ويلعرض لصفوان بن أمية : فيفحش عليه :  
من مبالغ صفوان أن عجوزه أمة لجارة معمر بن حبيب  
أمة يقال من البراجم أصلها نسب من الأنساب غير قريب  
سائل بحنبل إن أردت بيانها ماذا أراد بخبرها المثقوب  
(حنبل : رجل )

لولا السفار وبعد خرق مهمهم لتركتهما تحبو على العرقوب  
ولا يفتل منه الحارث بن هشام حين يقول له :  
يا حار إن كنت امرأ متوسعاً فافد الألى ينصفن آل جناب  
(ينصفن . يخدمن )  
أخوات أمك قد علمت مكانها والحق يفهمه ذوو الألباب  
إن الفرافصة بن الأحوص عنده شجن لأأمك من بنات عقاب  
(الفرافصة ، هو أبو فائلة امرأة عثمان )  
أجمعت أذك أنت ألام من مشى في فحش مومسة وزوك غراب  
(الزوك . مشية الغراب )

وكذاك ورثك الأوائل أنهم ذهبوا وصرت بخزية وعذاب  
فورث والدك الخيانة والحنأ والوؤم عند تقايس الأحساب  
وأبان لوأمك أن أمك لم تكن إلا لشر مقارف الأعراب

\*

وهذه أبيات له في هجاء أمية بن خلف الجمحي :  
عمرك ما أوصى أمية بكذره بوصية أوصى بها يعقوب  
أوصاهم لما تولى مديراً بخطيئة عند الإله وحوب



أَبْنِيَّ إِنْ حَولَتُمْ أَنْ تَسْرِقُوا نَحْذُوا مَعَاوِلَ كُلِّهَا مَنُوقِب  
وَأَتُوا بِيُوتِ النَّاسِ مِنْ أَدْبَارِهَا حَتَّى تُصِيرَ وَكَأَنَّ مَنُوقِبَ

وهكذا عرض « حسان » لسادة قريش ، سيداً بعد سيد ، وكابراً في إثر كبير ، يهدم  
من جاههم ، ويحطم من خطرهم ، نافذاً إلى أصولهم ، والجا إلى أحسابهم ، في حذر وتبصر ،  
فالوشائج بين هؤلاء وغير المسلمين متصلة ، وفيهم من تتصل أسبابه بأسباب الرسول  
صلى الله عليه وسلم — يُبَصِّرُهُ بِالسَّخَدِ ، ويهديه إلى المناقص ، والنسابة أبو بكر .  
وحسان إذ يفعل لِيُسمعَ معاشر يستخفها القول ، ويستهيها الشعر ، تُعز من يعزه  
الشعر ، وتهون من يهونه .

\* \* \*

تلك رسالة حسان في الجاهلية والاسلام ، عاش لها مخلصاً موفقاً ، ولا يضيره أن أسباب  
الإجادة خائنه في بعض ما قال . فحسبه أن الناس إذا ذكروا ذلك الجهاد الذي احتدم بين  
الدعوة الاسلامية ومشركي العرب ذكروه ، وإذا عدوا الأبطال المحاربين لم ينسوا أن  
يذكروه في أول القائلين . والكفاح يد ولسان . وقد حرم حسان اليد الباطشة وقلب  
الشجاع ، فلك اللسان اللادع وقلب المؤمن . فأعان بهما جهده . وعاش بعد وفاة الرسول  
صلى الله عليه وسلم متصلاً برسالته ، على ما يرى ويبصر ، يعنيه أمر الأنصار فيما يعنيه  
من أمور المسلمين .

وأنت تعرف كيف صار الأمر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى فرقة ، كان حسان  
فيها جانحاً إلى عثمان واصلاً بحبله بحبله حاملاً على خصومه ، تحس هذا في تعريضه بعلي وهو  
يرثي عثمان :

من سره الموت صرفاً لا مزاج له      فليأت مأسدة في دار عثمانا  
بل ليت شعري وليت الطير تخبرني      ما كان شأن علي وابن عفانا  
لتسمعن وشيكاً في دياركم      الله أكبر يا ثارات عثمانا

إلا أن هذا الميل لم ينسه صلته بأقطاب المسلمين يحملون غير رأيه ، ووجد في الحرص  
على تلك الصلة ما يزيد الأمر قوة ، فلم يفته أن يرثي أبا بكر وعمر ، وهو وإن أقل ، فرثي  
أبا بكر بأربعة أبيات ، وعمر بثلاثة ، إلا أنه استطاع أن يجرد نفسه مما تجدد ، والنفوس  
لا تواد على السكال كله ، وأحمد ما تساني أقرب ما تكون إليه .



## المُتَنَابِرُونَ

الْمُتَنَابِرُونَ - الْفَرَزْدَق - مَجْرِب

التقى المسلمون في « صفين » شيعتين ، إحداهما تظاهر « عليّاً » والأخرى تناصر معاوية . واستحضر القتل بينهم حتى بلغ أشده ليلة الهريز ، فرفعت المصاحف ، ونادى الشّاميون : كتاب الله بيننا وبينكم . ويصدقك النجاشي بن الحارث حين يقول :

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليه كتاب الله خير قرآن

ونادوا عليّاً يا بن عمّ محمد أما تتقي أن يهلك النقلان

وانتهى الفريقان إلى تحكيم جرّ إلى خروج خارجة على عليّ وبقيت الأمور إلى اضطراب أحمر فقرأ من الخوارج : ابن ملجم ، والبُسرّك ، وزادويه ، أجمعوا أمرهم على أن يقتلوا عليّاً ، ومعاوية ، وابن العاص .

ويشاهد القدر أن يُصمّي ابن ملجم ويُشوي صاحبه . ويخلو معاوية بالحسن ، فينزل له الحسن عن الأمر جنوحاً للسلام وحققاً للدم . ولكنه لا يلبث أن يتجرّعها مسمومة فتقرى أحشائه فرياً لا يخطو معه إلى شفاء .

ويدخل معاوية الكوفة خليفة ، فيرغب إليه الراغبون ، ويصبّ صوبه الطامعون . وينحاز عنه آخرون ممن لهم هوى في بني هاشم .

\*\*\*

ذلك أمر الناس والأخطل وصاحبه إلى ظهور . ويدركه الأخطل سابقاً . وتصل الأيام حبسه بحبل يزيد بن معاوية ، ومعاوية مع الملك يُصرّفه . ويرى الأخطل الأسباب تُريده على أن يحيا لهذا البلاط فيحيا له .



ونحب أن نردك الى بيان ووضوح ، فنذكر لك أن صوت الراغبين عن معاوية أخذ  
يعلو . وعدا شعراؤهم طورهم . وكان لمعاوية حيلم ضُرب به المثل . فوثب عبد الرحمن بن  
حسان ووثبته التي هاجت يزيد حين ممع له شعراً في التشبيب برملة أخته . واستعدى عليه  
أباه فلم يُعده .

ولم يجد يزيد من شيعته غير كعب بن جميل التغلبي ، وكعب تمنعه حنيفيته أن يقول  
في الأنصار . فيضم يزيدُ إليه الأخطل ، وما عليه من حرج أن يقول :

لعن الآلَـكـه بني اليهود عصابةً      بالجزع بين جُلّاجل وصرارِ  
( جلاجل وصرار : موضحان )

قوم إذا هدر العصورُ رأيتهم      حمراً عيونهم كجمر النارِ  
ذهبت قریش بالمكارم والعلى      واللاؤم تحت عمام الأنصار  
فذرّوا المعالي لستم من أهلها      وخذوا مساحيكم بني النجارِ  
( المساحي : جمع مسحة ، وهي آلة يقر بها )

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته      كالجحش بين حمارة وحمار  
( ابن الفريعة : حسان بن ثابت )

وئارت ثائرة الأنصار واستنصفوا معاوية ، وهم معاوية أن يفعل ، فحمى يزيد الأخطل  
ودفع عنه . وكانت التي بلائها الأخطل يزيد . فلما أمن معها العطب وذاق الأمن أجرى  
لسانه بشكره :

ولولا يزيد ابن الملوک وسيسه      تجلّست حدباراً من الشر أنكدنا  
( الحدبار : الناقة الهزيلة )

وكم أنقذتني من جرورِ حبالكم      وخرساء لو يرمى بها الفيل بلداً  
( الجرور : البثر الدميقة . والخرساء : الدامية . وبلد : لصق بالارض لما دماه )

أبا خالد دافعت عني عظيمة      وأدركت لحي قبل أن يتبددا  
( أبو خالد ، كنية يزيد )



وأطفأت عني نار نهمان بعدما أغدّ لأمرٍ عاجزٍ وتجرداً  
(نهمان، هو ابن بشير الانصاري . وكان رسول الانصار الى معاوية في شأن الاخل . وأغد : أسرع .  
ولأمر عاجز ، أي شديد يعجز صاحبه)

ولما رأى النعمان دوني ابن حُرّة طوى الكشح إذ لم يستطعني وعسراً  
(طوى الكشح : أضمر العداوة . وعرد : هرب )

وما وجدت فيها قریش لأمرها أعفّ وأوفى من أيتك وأمجدا  
وأصلب عوداً حين ضاقت أمورهم وهمّت معدّ أن تخيم وتحمدا  
(معدّ ، يريد العرب . وتخيم : تخيم )

فأصبحت مولاها من الناس بعده وأحرى قریش أن يهاب ويحمدا  
فأقسمت لأنسي مدى الدهر سيبه غداة الليالي ما أساغ وزوداً  
( ما أساغ ، أي ما أساغني ريقاً ، أي فرج كربتي . وزود ، أي زودني بخير )

هذه واحدة عرف فيها الأخل أيّد صاحبه ومُسنته ، وأحسّ أنه يأوي إلى ركن  
شديد . ثم أتى الأخل ، وهو بين هاشمية وأموية ، يختار غير من اختاروه ؟  
عرف ذلك الأخل فنصّب نفسه للامويين شاعراً يزود عنهم ، ومن ورائه قومه  
يشدون أزره ، وينصرون من ناصر . ولم تكن تلك الأيام التي خاضوها مع القيسيين في  
مرج راهط إلاّ تثبيتاً لملك المروانيين ، وتثبيتاً لمن هموا بهم وأرادوا أن يديلو عليهم .  
ويعرف الأخل أيادي قومه فيضمنها شعره في عبد الملك :

بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا  
( يشير الى هجائه الانصار )

أخمت عنكم بني النجار قد علمت عسلياً معد وكانوا طالما هدروا  
( عسلياً معد : قریش . وهدروا : أكنزوا من الكلام )

حتى استكانوا وهم مني على مضض والقول ينفذ ما لا تنفذ إلاّ  
وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك بطن الغوطة الخبر  
يعرفونك رأس ابن الحباب وقد أضحي ولل سيف في خيشومه أثر  
( ابن الحباب ، هو عمير بن الحباب ، وهو الذي كنّ يؤول على عبد الملك وقتله قتالاً انتصاراً له . وفيه )



والحارث بن أبي عوف لعين به حتى تعاورة العشبان والسير  
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا  
فلا هدى الله قيساً من ضلالتهم ولا لعا لبني ذكوان إذ عثروا  
(لا لعا لبني ذكوان ، أي لا أقامهم الله . وذكوان : رمط عمير بن الحباب من سليم )

ولا الضباب إذا خضرت عيونهم ولا عصية إلا أنهم بشر  
( اخضرت : اسودت . وعصية : بطن من سليم )

وقد أصابت كلاباً من عداوتنا إحدى الدواهي التي تخشى وتنتظر  
أما كليب بن يربوع فليس لهم عند التفارط إيراد ولا صدر  
( التفارط : التقدم الى الماء )

ومضى عبد الملك وخلفه ابنه الوليد . ولأمر ما يفقد الأخطل ما كان له عند من  
سبق ، ولا يعود مشفعاً في أمور قومه وخاصته . ولا يملك هو فكاً كما مما شد نفسه إليه ،  
ويبقى على ولائه للأموين فيقول مستعطفاً :

بني أمية قد أجدت فواضلكم منكم جيادي ومنكم قبلها نعي  
فإن حلفت لقد أصبحت شاكرها لأحلف اليوم من هانا على أنهم  
وقد علمتم وإن أصبحت نائيكم نصحي قديماً وفعلي غير متهم  
لقد خشيت وشاة الناس عندكم ولا صحيح على الأعداء والكلم  
وتنوبه وقومه الغرامات ، وتؤده الأثدات فلا يملك غير أن يشكو :

وإنها معشر نابت علينا غرامات ومُضْلَعَةٌ كَوُودُ  
وعضَّ الدهر والأيام حتى تغير بعدك الشعر الجديد

( أي شاب )

\* \* \*

ويحملها الأخطل سنين خمساً عجافاً ، لم يملك فيها غير لسان المستعطف توافيه بعدها  
منيته فيمضي بقول جرير :

زار القبور أبو مالك فكان كالألم زوارها



ستبكي عليه دروم العشاء خبيث تنسّم أسحارها  
( الدرّوم : التي تدور بالليل وتتبع الفسح )

تنوح بنات أبي مالك يسوق النصارى وزمّارها

\* \* \*

ولنترك الأخطل الى حين . ولناخذ معك في حديث الفرزدق .  
فهو ، كما في حفظك ، أبو فراس هام بن غالب بن صعصعة ، دارمي ، تميمي . لأبيه  
وجده ذكرّ بين الأجواد . فيروون أن صعصعة بذل من ماله في فداء ثلاثين مؤودة .  
وقد ذكرها له الفرزدق وأكثر في مثل شعره :

وجدي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يواد  
وعرفت لغالب كف نديّة وبرّ بالأضياف تحدّث به الفرزدق في رثائه له :  
نعم أبو الأضياف في المحل غالب إذا ليس الغادي يديه من البرد  
وما كان وقفاً على الضيف مجحماً إذا جاءه يوماً ولا كافي الزند  
وكان إذا ما أصدرته مكارم وساور أخرى غير مجتنح الورود

\*

ومن حيث بدأ الأخطل بدأ الفرزدق . وإن كادت سوابق الحوادث لتجنح به الى غير  
ما شغل به . فقد عُرف ميل قومه الى الأخذ بناصر « علي » فيما ثار بينه وبين عائشة .  
واستبان هوام العلوي حين تقسمت الأهواء بين « علي » ومعاوية . وكانت لغالب على  
« علي » وفدة مقدّمة الكوفة وفي يده ابنه الفرزدق . ويروون أن « عليّاً » حبّس  
الى الأب أن يأخذ ابنه بحفظ القرآن .

علويّة لا ينال منها إلا وقفة « لضية » أحوال الفرزدق إلى صفوف عائفة يوم الجمل .  
وما آلت الكلمة لمعاوية ، واستوى ولاته على الكوفة ، حتى جرى الدارميون قوم  
الفرزدق فيمن جروا يبائعون . ولعلمهم اشتروا الأمن بكلمات لا تجد لها صدى في القلوب .  
وما نعرف للفرزدق حلوية صريحة إلا مع قوله يمدح زين العابدين :  
هذا الذي تعرف البطحاه وطأته والبيت يعرفه والحلّ والحرم



هذا ابن خير عباد الله كلهم  
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلًا  
ومنها :

من يشكر الله يشكر أوليَّه ذا  
يُسمى إلى ذروة الدين التي قصرت  
مشتقة من رسول الله نبعته  
ومنها :

من معشر حبيب دين وبغضهم  
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم  
إن عهد أهل التقي كانوا أئمتهم  
ومنها :

وقد أغضبت هذه «هشامًا» خبسه . ففزع الفرزدق بقوله فيه :  
رأيت بني مروان يرفع ملكهم  
جمع الله الصلاة فأصبحت  
ومنها :

عسى يدي خير البرية تنجلي  
إذا ذكرت نفس ابن مروان صاحبي  
رأيت بني مروان إذ شقت العصا  
شفوا ثائر المظلوم واستمسكت بهم  
جزى الله خيرًا من خليفة أمة  
ويقنع هشام منه بهذا فيعود إلى برّه ويخلي سبيله .

ولا نكاد نعرف للفرزدق غير هذه يلفتنا فيها إلى هاشميتيه . أما سائر شعره ففي مدح  
الأمويين ، جرى معهم من شبه إلى دبه فأكثر :

إذا لاقى بنو مروان سلوا لدين الله أسيافاً غضابا  
صوارم تمنع الإسلام منهم يوكل وقعن بمن أرابا



هذه لقوا بمكة ملجديها ومسكن يحسنون بها الضرابا

(يشير الى الوقعة التي كانت بين عبد الملك بن مروان ومذموب بن الزبير في مسكن موضع قريب من ارانا على نهر دجيل)

فلم يتركَنَّ من أحدٍ يصلي وراء مكذبٍ إلا أنابا  
قال في ماوكمهم ملكاً بعد ملك، لم يقصر ما ملك أن يطيل، ولم ينقص ما قدر أن يفي.

مدح عبد الملك، وهو عنه بعيد، ما وفد عليه ولا ضمه مجلسه، فقال:

يأيها الراكب المزعج مطيته يريد مجمع حاجات الأراكيب  
إذا أتيت أمير المؤمنين فقل بالنصح والعلم قولاً غير مكذوب  
ويذكر صولته وما عرف لآله من بطش أرغم الخارجين عليه:

أما العراق فقد أعطتك طاعتها وعاد يعمر منها كل تخريب  
أرض رميت إليها وهي فاسدة بصارم من سيوف الله مشبوب  
فالارض لله ولأهلها خليفته وصاحب الله فيها غير مغلوب  
بعد الفساد الذي قد كان قام به كذاب مكة من مكرٍ وتخريب  
(يريد عبد الله بن الزبير الذي ادعى الخلافة بمكة ومالاً نفر من العراقيين)

\*

ومدح الوليد بن عبد الملك وما زاره ولا وطىء أعتابه:

إليك أمير المؤمنين ألتجتها الى خير من حُلَّتْ له عُقد الرِّحل  
إلى خيرهم فيهم قديماً وحادثاً مع الحلم والايمان والنائل الجزل  
ورثت أبائك الملك تجري بسمته كذلك خوط النبع ينبت في الأصل  
كداود إذ ولي سليمان بعده خلافته مُحملاً من الله ذي الفضل  
يسوس من الحلم الذي كان راجعاً بأجبال سلمى من وفاء ومن عدل  
ثم ينتهي من مدحه الى النسل من خصومه وتسفيه ما هموا به:

فمن ذا الذي يرجو الخلافة منهم وقد قُت فيهم بالبيان وبالفضل  
فبينت أن لاحقاً فيها لحاذل تربص في شك وأشفق من مثل

(المثل: التنكيل)



وقد خذلوا مروان في الحرب وابنه أباك وأدلو فيهما مع من يدلي  
ثم يصل ما انقطع ويعود الى مروان :  
ففتت بما فازا به من خلافة وزدت على من كان قبلك بالحصل  
بعافية كانت من الله جللت مشارقها أمناً الى مغرب الأمل  
(الامل : منقطع حبال الرمل . يريد أقصى الحدود)

وكنت المصفي من قریش ولم يكن لو طئت فيهم زيغ كعب ولا نعل  
ويخرج الى سليمان بن عبد الملك مادحاً سائلاً :  
يا بن الخلائف لم نجد أحداً يبقى لحسّر نوائب الدهر  
إلا الرواسي وهي كائنة كالعين وهي سريعة المر  
أحييت أنفسنا وقد هلكت وجبرت منا واهي الكسر  
فلقد عززنا بعد ذلتنا بك بعد ما نأبي من القسر  
ويؤم ساحة عمر بن عبد العزيز في مثل ما أم له سليمان من قبل :  
وساقنا من قسا يزجي ركائبنا اليك منتجع الحاجات والقدر  
(قسا : موضع بالمالية)

وجانحات ثلاث ما تركن لنا مالا به بعدهن الغيث ينتظر  
ثنتان لم تتركا لهما وحاطمة بالهزم حمراء حتى اجتاحت الفرر  
(الحمراء : السنة الشديدة)

فقلت كيف بأهلي حين عض بهم عام له كل مال مُنْعَق جزر  
(منْعَق : ما يصاح به . وجزر : مباح للذبح)  
عام الى قبله عامان ما تركا مالا ولا بل عوداً فيهما مطر

\*  
فعسجتها قبيل الأخيار منزلة والطيب كل ما التأت به الأزر  
(التأت به : التفت)

سيروا فإن ابن ليلى من أمامكم وبادروه فإن العُرف مُبتدر



وبادروا بن ليلى الموت إن له  
 أليس مروان والفاروق قد رفعاً  
 كفيه والعود ماء العرق يعتمر  
 \*  
 وبلي هشام الأمر والفرزدق قد خلف الثمانين أو كاد ، فيخبو إليه من العراق ،  
 وبقلبه أن هشاماً لا يزال واجداً عليه مدحه زين العابدين . فليتربصها ويلاّت إن لم يسمع  
 إليه يكيل له المديح :

يقول بني هل بك من رحيل  
 فتنهض نهضة لبنيك فيها  
 فقلت لهم وكيف وليس أمشي  
 وهل لي حيلة لكم بشيء  
 رمتي بالثمانين الليالي  
 أقول لناقتي لما ترامت  
 أغني من وراءك من ربيع  
 يدي خير الذين بقوا وماتوا  
 به تحيا البلاد ومن عليها  
 ممدت إليك خير الناس حياً  
 إلى ملك الملوك جمعت همي  
 يداك يد ربيع الناس فيها  
 فإن الناس لولا أنت كانوا  
 وبشرت السماء الأرض لما  
 لقوم منك غير ذوي سوام  
 غنى لهم من الملك الشامي  
 على قدمي ويحكم مرامي  
 إذا رجلاي أسعنا قتامي  
 وسهم الدهر أصوب سهم رامي  
 بناييد مسربة القتام  
 أمامك مرسل بيدي هشام  
 إماماً وابن أملك عظام  
 من النعم البهائم والأنام  
 لتنعش أو يكون بك اعتصامي  
 على المتردقات من السّمام  
 وفي الأخرى الشهور من الحرام  
 حصي خرز تساقط من نظام  
 تحمّنا بإقبال الإمام  
 وما نريد أن نشق عليك فنعرض لك غير هذا مما مدح به الأمراء والقادة والسادة .  
 فالخطب فيه يسير ، ولنا فيه بعد جرير حديث .

\*

ويكاد جرير يشرك الفرزدق عمره ، فقد انتهى معه إلى العمام الذي قضى فيه ، لم يهنأ  
 بالحياة بعده إلا أياماً أربعين أو ثمانين .



لكنه لم يبدأها معه ، فنحن نعرف الفرزدق يوم صحب أباه إلى « علي » . ونعرف مولد جرير بين العامين الثامن والعشرين والثاني والثلاثين ، ويكاد يدلنا هذا على أن الفرزدق سبق جريراً بسنين لا تزيد على العشر كثيراً .

\*

والأمر هنا صورة منه هناك مع الفرزدق ، فقد عاش جرير للمروانيين يذكرهم فيشيد :

يا آل مروان إن الله فضلكم  
قوم أبوهم أبو العاصي فأورثهم  
قد فات بالغاية العليا فأحرزها  
يحمي حماه بجرار له لب  
ما الملك منتقل منكم إلى أحد  
ويقول في عبد الملك يمدح ويسأل :

رأيت الموردين ذوي لقاح  
بأنفاس من الشَّيم القراح  
أذاة اللوم وانتظري امتياحي  
ومن عند الخليفة بالنجاح  
بسبب منك إنك ذو ارتياح  
زيارتي الخليفة وامتداحي  
وأثبت القوادم في جناحي  
وأندى العالمين بطون راح

ويملك الوليد بن عبد الملك فلا ينسى نصيبه من برّه وعطائه :

إني لمعتمد الخليفة زاراً  
ليس البري كمن تمرّض قلبه  
فأنا المشايخ قلبه لم يمرض  
ليس البحور إلى الثماد البرّض  
فوثقت ما سلم الخليفة بالغنى

( البرض : الماء القليل )

بحر تفيض له سجال بالندى وإليه جارية البحور التفيض



يُجْزِيكَ رَبُّكَ حُسْنَ قَرْضِكَ إِنَّهُ  
وَاللَّهُ قَدَّرَ أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً خَيْرَ الْبَرِيَّةِ وَارْتِضَاكَ الْمُرْتَضَى  
وَيُعْضِي الْوَلِيدَ وَيُخْلِفُهُ سَالِمَانَ ، فَيَنْهَضُ إِلَيْهِ مُنْشِئاً :

سَلِمَانَ الْمُبَارَكَ قَدْ عَلِمْتُمْ هُوَ الْمَهْدِيُّ قَدْ وَضَحَ السَّبِيلُ  
أَجَرْتَ مِنَ الْمَظَالِمِ كُلِّ نَفْسٍ وَأَذَيْتَ الَّذِي عَهْدَ الرَّسُولِ  
صَفَتْ لَكَ بَيْعَةً بَثَبَتْ عَهْدِي فَوْزَنَ الْعَدْلُ أَصْبَحَ لَا يَمِيلُ  
إِذَا ابْتَدَرَ الْمَكَارِمُ كَانَ فِيكُمْ رِبْعُ النَّاسِ وَالْحَسْبُ الْأَثِيلُ  
عَلِمْتُمْ كُلَّ رَايَةٍ وَفَرَعٍ وَغَيْرِكُمْ الْمَذَانِبُ وَالْهَجُولُ

\*

وَمَا يَسْتَقِرُّ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَتَّى يَتَعَجَّلَهُ الْبَرُّ ، جَاعِلاً مِنَ الْمَدْحِ سَبِيلَهُ :  
إِنَّ الَّذِي بَعَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا جَعَلَ الْخِلَافَةَ فِي الْإِمَامِ الْعَادِلِ  
قَدْ نَالَ عَدْلًا مِنْ أَقَامَ بِأَرْضِنَا فَالَيْكَ حَاجَةٌ كُلُّ وَفْدٍ رَاحِلٍ  
أَنْيَ لَا مَلَّ مِنْكَ خَيْرًا عَاجِلاً وَالنَّفْسُ مَوْلَعَةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ  
وَاللَّهُ أَنْزَلَ فِي الْكِتَابِ فَرِيضَةَ لَابْنِ السَّبِيلِ وَلِلْفَقِيرِ الْعَائِلِ

\*

وَيُخْلَفُ يَزِيدُ عَمْرَ فَلَا يَعْصِي عَنْ الْقَوْلِ :  
لَمَّا مَلَكَتْ عَصَا الْخِلَافَةِ بَيْنَتْ لِلطَّالِبِينَ شِمَائِلَ وَنِجَارُ  
سَاسَ الْخِلَافَةِ حِينَ قَامَ بِحَقِّهَا وَحَمَى الذَّمَّارُ فَمَا يُضَاعُ ذَمَّارُ  
وَيَزِيدُ قَدْ عَلِمْتَ قَرِيشَ أَنَّهُ غَمَرُ الْبَحُورِ إِلَى الْعَلَا سَوَّارُ  
وَعُرُوقُ نَبْعَتِكُمْ لَهَا طِيبُ الثَّرَى وَالْفَرْعُ لَا جَعْدَ وَلَا خَوَّارُ  
إِنَّ الْخَلِيفَةَ لِلْيَتَامَى عَصْمَةٌ وَأَبُو الْعِيَالِ يَشْفُهُ الْإِقْتَارُ  
وَمَنْ بَعْدَ يَزِيدَ هِشَامَ وَجَرِيرَ عَلَى بَابِهِ يَنْشُدُ :

لَوْ أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَ سَعِي قَوْمٍ صَفَتْ لَكُمْ الْخِلَافَةَ وَالْعَهْدُ  
عَلَى مَهْلٍ تَمْكُنُ فِي قَرِيشَ لَكُمْ عِظَمُ الدَّسَائِعِ وَالرُّفُودُ  
هِشَامُ الْمَلِكِ وَالْحُكْمُ الْمَصْفَى يُطِيبُ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ الصَّعِيدُ



يعم على البرية منك فضل وتُطرق من مخافتك الأسود  
وإن أهل الضلالة خالفوكم أصابهم كما لقيت ثمود

\*

وهكذا لم يخص جرير خليفة دون خليفة . شأن سابقينه . واتصل بعد هذا بأمر  
بني أمية وقولدهم . كما لم يضمن على نفر من وجوه القوم بما جادت به قريحته . فمدح العباس  
ابن الوليد وسامة بن عبد الملك والحجاج والجعيد بن عبد الرحمن المري . وعبد الله بن عمرو  
ابن عثمان والمهاجر بن عبد الله الكلابي ونفراً آخرين .

\*\*\*

هذه صفحات ثلاث ، جمعت لك فيها عن الشعراء الثلاثة أكثر ما يعيننا عنهم ، وخلفت  
ناحية نقائضهم التي عُرِفَتْ لهم وشاعت عنهم ، حتى إن محدثاً يكاد لا يذكرهم إلا بها .  
فتلك هاجمة من الشر خلقتها المنافسة بين ابني العم : الفرزدق وجرير . وأذكي الناس نارها .  
ولا يفوتك ما حبا الملوك به من فعل أو قول ، وما أثنوا به وعابوا . فمثل هذا افترق  
الناس ولا يزالون يفترقون .

ولا أنصبك كثيراً إذا عرقتك قبل هذا أن الفرزدق كان ينزع إلى الهجاء صباه .  
هاجى غير واحد . ثم زهد في الشر وهم أن يحبس نفسه للقرآن يتدبره . وإذ به يُحرِّك  
لما عافه ، وينتهي إليه أن الشر بين جرير والبعيث المجاشعي قد استشر ، وأن جريراً نال  
من البعيث في جرماً قومه .

فيهب لجرير ولسانه ينشد :

أنا الضامن الراعي عليهم وإعما      يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي  
ولو ضاع ما قالوا : أرع منا وجدتهم      شحاحاً على الغالي من الحسب الجَزَل  
ولست إذا ثار الغبار على امرئ      غداة الرهان بالبطيء ولا الوغل  
ولولا حيائه زدت رأسك هزماً      إذا سُيرت ظلمت جوانبها تغلي  
ثم يحمى للأمر ويكشف عن قناعه ، فيقول :

دعاني ابن حمراء العجبان ولم يجد      له اذ دعا مستأخراً عن دعائيا  
فنفسست عن سميه حتى تنفسا      وقلت له لا تحش شيئاً ورائيا



أرحتُ ابنَ حمراءَ العجّانَ فمرّدتُ فقارته الوُسطى وإن كان وانيما  
ثم يجري الشر إلى مداه يؤور أواره ، وقد أشرت إلى بعضه . ويخوضه الأخطل بعد  
ما عاش صدر عمره لا يابه له ، وينحاز إلى الفرزدق . فيسمع الناس ثلاثتهم ما شئت من  
إسفاف لا ضابط له من حياء .

\*

تلك الصفحة ، وإن اتصلت في الحين بعد الحين بعض ما نريد الشعراء له ، إلا أنك  
تجدها هنا أمراً خرج إلى المهاترة ، وملك زمامه الجهل ، وكاد يكون إشباعاً لشهوات ،  
ومن فيض النزوات .

ونحن — وإن رأينا الإسراف فيه قد حجز القوم عن الالتفات إلى غيره بعض الشيء —  
لا نطلب مثله سبباً من أسباب دراستنا هنا . فإكان كما قلنا — جلس للذود عن حرمان  
والدفاع عن حوزات . ولكنه كان للشر الذي صيغت منه الطابائع . فلندعه لمن شاء أن  
يعرف الأخطل والفرزدق وجريراً شتامين عيابين . فتلك دراسة تحلو لمن أحب أن  
يعرف النفوس كيف تخلص للخير وكيف يغلبها الشر .

\*

وما حدثناك عن هؤلاء الثلاثة ، ونحن نعرض عليك صورهم وألوان قولهم ، إلا لنعود  
إليهم هنا معقبين . فتلاّتهم كما رأيت عاشوا في ظل الدولة الأموية منتصرين لها .  
أما عن الأخطل فقد عرفت كيف بدأ . وأنه قد أقحم على الأمر إقحاماً — وما أظن  
الأخطل كان يحمل نفسه ، وهو من تعلم ، أن يهجو الأنصار ، وما أرادها شاعر مسلم .  
وقد لقي بسببها شيئاً حين أمكن منه معاوية ، لكنه وجد يد يزيد فقوي بها وتبدل خوفه أمناً .  
عندها رأى الأخطل أن يختار مكانه الغانم ، وكان قومه إليه ، والدولة الأموية مع  
بدئها تبنى الحوادث أن الأمور إليها . ففضى يمكن لنفسه لدى سادتهم ، يمدحهم  
ويمدح من اتصل ، ويهون من شأن أعدائهم والمخارجين عليهم .  
غير إننا نراه كان لا يقول برأي حين قال في الخلاف القائم ، وأنه جرى على رأي المسلمين  
المنتصرين لبني أمية :



فالله لم يرض عن آل الزبير ولا  
يعاظمون أبا العاصي وهم نفرٌ  
ثم يقول :

ثم سعوا لابن عفان الإمام وهم  
حرباً أصاب بني العوام جاذبها  
بعد الشمس مروها ثم احتلبوا  
بعداً لمن أكلته النار والخطب

\*

ويقول :

هم الذين أجاب الله دعوتهم  
ليست تنال أكف الناس بسطهم  
ويوم صفين والأبصار خاشعة  
على الألى قتلوا عثمان مظلمة  
فهم قرّت عيون الثائرين به  
فلم تزل فيلق خضراء تحطمهم  
(أفرخ : سكن. والعيد : الكبر)

وأنتم أهل بيت لا يوازمهم  
وإن سألت قريشاً عن ذوائبها  
والمسلمون بخير ما بقيت لهم  
وإذا عُدَّت الأخاب والعُد  
فهم أوائلها الأعلون والسند  
وليس بعدك خير حين تقتقد

بمثل هذا قال الأخطل في الأمويين . وما نريد أن نجتمع له كل ما قال . ولكننا نجتزئ  
منه بما يدلنا على ما أراد . أراد الأخطل لنفسه صلة يقوى بها ويحمي ذويه من أن يجار  
عليهم أو ينال منهم .

هذا هو الأخطل حين بدأ . ورأى قومه وصنعهم بقيس ، وكانت قيس حرباً على بني  
سروان . فعدا مقامه الأول إلى مقام المشارك في التمكين للدولة برماح قومه وأسنتهم  
فيقول :

لقد علمت تلك القبائل أننا مصاليت جذامون آخية الشغب



فإن تك حرب ابني نزار تواضعت      فقد عذرتنا في كلاب وفي كعب  
وفي الحُقب من أفناء قيس كأنهم      بمنعرج الثرثار خشب على خشب  
وهنَّ أدقن الموت جزء بن ظالم      بماضية بين الشراسف والقُصب  
لعمري لقد لاقى سليم وعامر      على جانب الثرثار راغية البكر  
وقد ذكرنا لك شيئاً في مثله قبل . وتنتهي الأمور بالأخطل إلى ما كان يخشى . فإذا  
الوليد يجهوه ، ولم يجد الأخطل غير أن يقبع ويقنع بأن يقول :

ولقد علمتم وإن أصبحت نائيكم      نصحي قديماً وفعلي غير متَّهم  
ثم إذا فدحته وقومه المغارم يقول :

وعضَّ الدهر والأيام حتى      تغير بعدك الشعر الجديد

\* \* \*

يقولون وفسى الأخطل لسادته في الرءاء والشدة . وأقول لقد اختار الأخطل النفع  
وشره بلسانه . فلما فقدته لم يملك أن يقول على المنع كما قال على الاعطاء . وكان حين اشترى  
له ولقومه حكيماً ، ولكنه لم يكن حين حُرم على شيء من الجرأة والشجاعة . ففنع بتلك  
الآيات القليلة وكنتم ما يشكو وما يضيره .  
كننا نريد أن نراه مع الوفاء لسادته يقول فيما نابه في البأساء ، بقدر ما قال عندما  
أصاب في النعماء .

لم لم نسمعه يتجه إلى الوليد يحدِّثه مفيضاً عما أضاره وآذى قومه ، ولم نراه أنكسر  
وتخاذل واختفت كلماته الأولى حين كان يخاطب عبد الملك فيدلّ بلاء قومه ، ويدأ  
الأخطل غير الأخطل في خطابه للوليد حين يقول :

وقد حلفتُ يميناً غير كاذبة      بالله رب ستور البيت ذي الحُجب  
وكل موفٍ بنذر كان يحمله      مضرَّجٌ بدماء البُدن مُختضب  
إن الوليد أمين الله أنقذني      وكان حصناً إلى منجاة هربي  
أُتيتُهُ وهمومي غير نائمة      أخا الحذار طريد القتل والهرب  
فأمن النفس ما تحشى وموَّها      قدَّم المواهب من أنوائه الرُغب

( القدم : الكثرة والربح : الكثرة الواسعة )



وهم ذرى عبد شمس في ارومتها      وهم صميمهم ليسوا من الشذّب  
وكان ذلك مقسوماً لاؤلهم      وراثته ورثوها عن أب فاب  
وإلى هذا قوله :

حلفت بمن تساق له الهدايا      ومن حلفت بكعبته الذور  
لقد ولدت جذيمة من قريش      فتاها حين تحزبها الأمور  
وأكرمها مواطن حين تبلى      ضرائبها وتختضب النحور  
وقد علمت أمية أن ضغني      اليها والعداء لها هريز  
(ضغني ، أي يبلى وشوقي)

وأي ما حيت على هواها      وأي بالمغيب لها تصور  
فن يك قاطعاً قرناً فاني      لفضل بني أبي العاصي شكور  
ولكني أهاب وارثيكم      ويأتيني عن الأسد الزئير  
ثم قوله :

لقد حلفت بما أسرى الحبيج له      والناذرين دماء البدن في الحرم  
لولا الوليد وأسباب تناواني      هن يوم اجتماع الناس بالثلم  
(الثلم : موضع)

إذا لكنت كمن أودى ووداه      أهل القرابة بين اللحد والرجم  
(وداه : فيه)

أهلي فداؤك يوم المحرمون بها      مقاسم المال أو مغض على ألم  
إن ابن مروان أسقاني على ظمإي      بسجل لا عاتم ريناً ولا خذرم  
(السجل : اللؤلؤ . والعام : البطي . بالهاء . والخدم : المنطوع )

إلى أن يقول :

فهم هنالك خير الناس كلهم      عند البلاء وأصام على الكرم  
لولا بلاؤكم في غير واحدة      إذا لعمت مقام الخائف الزرم  
(ازرم : المنقطع)



أُسمعتكم يوم أدعو في مُودَّة لولاكم شاع لحي عندها ودي  
( المودَّة المقازة )

أُستطيب هذا من شاعر تريده رسالة ؟ وكم هو مفيد على هذا الاسراف في  
المديح والدعاء ؟

وقد يقول قائل : أشرِّ بغير هذا إن ملكته . ونكاد نملك الجواب حين نقول :  
قد نؤمن أن الأخطل رأى الخير في أن يكون الأمر الى بني أمية ، وقد نراه رجا لآله  
ابدعة حين وصل جبلهم بحبل الأمويين . فكان عليه مع هذا الرأي أن ينتصر له ، ولذلك  
الرجاء أن يمكن لأسبابه . فقال يُعزِّ بقوله ولاية الحق ويُهَوِّن من خصومهم ، وأثنى على  
من رجا لقومه عندهم خيراً فأطاب .

نحن لانتقاه هنا ، ولكننا نلقاه حين خذله الوليد وطمطه ماله وما لآله ونسي سابقته  
عنده . فوقف له الأخطل يستغفر عن غير ذنب ، ويعتذر دون جريرة ، في قول الخانع ،  
وذلة المستخذي . طامعاً أن ينصفه إسرافه ويرُدَّ عليه ما فقدته إغلاؤه .

وكان الأخطل فيما يقال محباً لما يدين به . وقد رأيت ما ناله مع عشيرته من حرج ،  
ورأينا نحن أن الوليد هدم للنصارى كنيسة . وارتفع لسان جرير يهنيء الوليد بما فعل ،  
أو قل يؤكد للأخطل فيما يقول :

إن الكنيسة كان هدم بنائها قسراً فكان هزيمة للأخرم  
فما عرض الأخطل لجرير في هذه ، ولا رفع صوته يبصر الوليد بمغبة ما فعل ، ولا قال  
في الحرج إلا بلسان المستعجب الوجل .

إن قلت : خاف البطش والتكيل . قلنا : قد فقد شجاعة الداعي ، وقوة جنانه .  
وإن قلت : أراد أن يأخذ الدين الى غايته مطية . قلنا : فرق لنا بين الدين والضعف .  
ثم لنعد الى المدح نتعرفه ، وأحب أن أقفك على رأيي فيه . فأنا أعد المدح يُجزي  
به الشاعر ، لا ليُجزي عليه . وفرق عندي بين كلمة أشكر بها وأخرى أسأل فيها الناس  
براً وعوناً .

وأيّن كان الأخطل من الرأيين . لقد حمّله يزيد هجاء الانصار ، فغفرناها له وقلنا :



شاعر يريد أن يهين له ولقومه ويختار . وأمكن منه معاوية وكاد الانصار ينالون منه ، فاستنقذه يزيد فشكره . فقلنا : واجب عليه أدائه . وجرى على الأمويين يمدحهم ملتفتاً لقومه . فقلنا : أصاب حين عدد لقومه ما كثرهم .

ومالت به مائة حين سلك بالمدح غير مسلكه وجعل منه مطيعة السائل أو وسيلة المستجدي . ثم خلس شعره المدح بقوله في غير الملوكة والملوك ، متخطياً القصد في الشكر الى الاسراف فيه . أتذكر قوله إلى شقراء وزوجها وكانا أكرماه وأنزلاه :

لعمرك ما لاقيت يوم معيشة من الدهر إلا يوم شقراء أقصر  
حوارية لا يقرب الذم بيتها مطهرة يأوي إليها مطهر  
وبيت كظهر الفيل أكثر حشوه أباريقه والشارب المتقطر  
فقلنا : زلت بالأخطال القدم .

ما أردنا أن يكفر الناس بالنعم ، وأن يحدوا الأيادي . وإنما أردنا أن يصان الشعر عن الابتذال . وما على الشاعر ، وهو من الناس ، أن يشكر بلسانهم في كلمة من كلامهم لا في بيت يسير عنه ويعد عليه ، يخص فيه المطعنين بالكثير مما لا ينهضون له . وما على الشاعر ألا يمدح إلا مجازياً . فذلك أعف له وأدعى إلى أن يسبق إليه . وما على الشاعر أن يقصد فيما يقول جانب الحق والنصف والقصد . فالناس على نهجه وحيث اتجه .

\*

وإذ قد أخذنا في المدح فبيئنا الرأي فيه فنحن إلى وقعة قصيرة مع الفرزدق وجريز تم بها الحديث عن الثلاثة .

يكاد الشاعران يجمعهما رَسَن وتؤلف بينهما غاية ، لا يصرفك عن ذلك تلك الهاجعة التي هاجت بينهما ، فما خلقت فيهما غير شر ولا أسمعنا إلا إخاشاً شغل الناس به حيناً ولا يزالون يشغلون ، فريق يرى فيه زاداً يقوى به إن ضرمت ضارمة ، وفريق يسمعه أو يقرؤه لينساه ، وهم الذين يريدون ألسنتهم على العفة وأنفسهم على النقاء .

وليس شيء غير الهجاء فارقاً سوى تلك البارقة التي ومضت برسيه ثم اختفت . نعي علوية الفرزدق التي لفظها أبيتاً ثم تاب عنها في قصائد .



وبعد هذا فالشاعران مداحان وقفا لملوك بني أمية بالمرصاد يمدحان من استخلف  
ويرثيان من مات . وان شئت فقل انهما خلعا رأيهما وهواهما وراعهما ، وجرى في رأي  
الأمويين وهواهم . تحس ذلك في موقف الفرزدق من آل المهلب ، فهم عند قوله :  
لأمدحن بني المهلب مدحة غراء ظاهرة على الأشعار  
مثل النجوم أمامها قر لها يجلو الدجى ويضيء ليل الساري  
ورثوا الطعان عن المهلب والقرى وخلاتقا كتدفق الانهار  
مارضي عنهم الأمويون وبسموا لهم . فاذا استحال رضى سادته سخطا ، سخط  
هو الآخر وأسرع يقول في يزيد بن عبد الملك بعد صلب يزيد بن المهلب :  
غلبتم الناس بالحق الذي لكم عليهم وبضرب غير تعذير  
لقد عجبت من الأزدي جاء به يقوده للنيايا حين معزور  
حتى رآه عبادة الله في دَوَّل منكسسا وهو مقرون بخنزير  
(ينير الى ما كان حين صلب يزيد بن المهلب وتلقاه من خنزير وزق خمر)

\*

وتراه راضيا عن عمر بن هبيرة ماضن ابن هبيرة الرضى عند أوليائه ، فيقول  
فيه الفرزدق :

لقد علمت وعلم المرء أصدقه من عنده بالذي قد قاله الخبر  
أن ليس يجزىء أمر المشرقين معا بعد ابن يوسف إلا حية ذكر  
أغر يستمطر الهلاك نائله في راحته الدم المعبوط والمطر  
وكم نحاك من الآباء من ملك به لذيان كان الورد والصدر  
أنت رجائي بأرضي اني فرق من واسط والذي نلقاه ننتظر  
ثم تعبس الوجوه فيعبس وجه الفرزدق ويجد قلبا ناسيا ولسانا طيعا فيقول فيه :  
إن الفزاري لا يشفيه من قرم أطيب العيسر حتى ينهش الذكرا  
لو أنها ضربت في القبر ميتها بنو فزارة بالجردان لانتشرا  
لو انها منعت منه وقد طبخت أم الفزاري أي العير لانتحرا



وترى جريراً مع هذا النهج إلا ما تنكر فيه الفرزدق لمن صفاه له ، يفرط في المدح حتى لنكاد نحس أن قلبه بالمدح عالق ، وإن هوى ضمه إليه ، فيمضي الممدوح وما جفَّ تراب قبره ، ولا جفَّ معه مداد ما قيل فيه ، وإذا بجرير على باب الخلف في مثل ما كان مع السلف .

ودرّب الرجل مع هذا أن يكون صاحب رأي ، فهو مع ما عددنا عليه ، لم يكن مطعوناً عليه نزعتاً ، ولم يوزّع هواه مع هوى غيره . ونحسب أن الهجاء شغلُهُ أن يلتف حول فكرة ، وأن مدحه هذا كان عدّة له في هجائه . ولعله أراد أن يقوى بممدوحيه ويعزّ بهم على خصميه .

وقد ترى رأينا حين تسمع أن ثلثي شعر جرير كان في الهجاء ، والثلث الباقي كان للمدح والفخر والنسيب والوصف والعتاب والشكوى والثناء .

وأنه هجا الأخطل بما يدنو من خمس وعشرين قصيدة ، وخصّ الفرزدق بما يصل إلى المائة .

هذا بال بلبلة الخصومة فعاش لها ، ولم يصف إلا في القليل لهذا الذي حدثناك عنه . وبعد فما كان أحوج هذا العصر إلى غير هؤلاء من الشعراء ، ينصحون ولا يمدحون ويبصرون ولا يقرظون ، ويرون ثم يملكون بشجاعة على القول .

أما هذا النفر الذين تمنى بهم الأمم ، ويصاب بهم السادة ، والذين لا كهم لهم إلا أن يزينوا البطش ، ويجمّلوا النكايّة ، ويمتدحوا سوارات الغضب . فما أشقى الأزمنة بهم .

أحسب لو أن الألسنة التي زينت للأمويين إنكاههم في خصومهم ملكت أن تخفف من غلوهم وتردّهم إلى حلم ما بآء الأمويون إلى نكال تجرّ عوه غصصاً على أيدي العباسيين حين انتهى إليهم الأمر ، ولما سمعوها مرة على لسان سديف يخاطب السفاح : جرّد السيف وارفّع العفو حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّاً



## أبو تمام وأبو الجحشي

(١٩٢ — ٢٣١) — (٢٠٦ — ٢٨٤)

هذان ديوانان لشاعرينا : أبي تمام حبيب بن أوس ، والبحري الوليد بن عبيد بن يحيى . وكلا الزجلين طائي . أدرك ثانيهما أولهما وما أن أنشده من شعره حتى قال له :  
قد نعتني إلى نفسي ، فما يخلصدي أن أعيش وقد شب في طي مثلك . ويروون  
أن أبا تمام لم يمتنع بعدها غير عام .  
فأنت ترى أن الحياتين متصلتان ، أو أن حياة البحري امتداد لحياة أبي تمام ، فادّع  
شاعر حتى قام في إثره شاعر ، على الطي والغرار ، بدأ من حيث انتهى سلفه ، ومضى  
وكأنه الصدى ، يصل ما انقطع . ونحن في تفصيل ذلك آخذون .

\*

فقد نشأ أبو تمام يمدح المأمون <sup>(١)</sup> أول خليفة لتي . بقصيدته التي يقول فيها :  
الله أكبر جاء أكبر من جرت فتعثرت في كنهه الأوهام  
من لا يحيط الواصفون بوصفه حتى يقولوا وصفه إلهام  
من شرّد الإعدام عن أوطانه بالبذل حتى استطرف الإعدام  
( الإعدام : الفقر . واستطرف : صار ملاطرياً ، أي جديداً ) .

وتكفّل الإيتام عن آبائهم حتى وددنا أننا أيتام  
يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسنته آثام  
إن المكارم للخليفة لم تزل والله يعلم ذاك والأقوام  
كتبت له ولأوليّه قبله في اللوح حتى جفت الأفلام

(١) ولي للمأمون من سنة ١٩٨ — ٢١٨ هـ



فبنو أليك على نفاسة قدرهم فيهم وإنهم هم الأعلام  
متواطئو عقبيك في طلب العلا والمجد تمت تستوي الأقدام  
يمضي المأمون بهذه وأبو تمام لم يعد نصف العقد الثالث إلا بقليل . ويخلفه المعتصم ؛  
ويمتد حكمه الى سنة ٢٢٧ . وتعمر تلك السنين الثمانية ، بفتوح ثمانية فيجد أبو تمام مجال  
القول فسيحاً . فهو هنا يهنئه بفتح عمورية :

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحدين الجيد والعب  
بيض الصفاح لاسود الصفائح في متونهم جلا الشك والريب  
فتسح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعرا ونثر من الخطب  
فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب  
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلاً معسولة الحلب  
( حفلا : بحجمة ) .

ماربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى ربي من ربها الحزب  
خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب  
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب  
إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو زمام غير منقضب  
فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب

\*

وهو هنا يهنئه بإحراق الأفشين :

الحق أبلج والسيوف عوار خذار من أسد العرين خذار  
ملك غدا جار الخلافة منكم والله قد أوصى بحفظ الجار

الله من نار رأيت ضياءها ضاق الفضاء به على النظار  
مشوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للساير  
صلتي لها حياً وكان وقودها ميتاً ويدخلها مع الفجار



يا مشهداً صدرت بفرحته الى أمصارها القصوى بنو الأمصار  
رمقوا أعالي جذعه فكأنما وجدوا الهلال عشية الإفطار  
واستنشقوا منه قُتاراً كَشْرُهُ من غبر ذفر ومسك داري  
(داري : نسبة الى دارين بلد معروفة بالسك )

فالأرض دارٌ أقفرت ما لم يكن من هاشم ربُّ لتلك الدار  
سور القرآن الغرُّ فيكم أزلت ولكم تصاغ محاسن الأشعار

\*

وهو في هذه يهنئه بأخذ بابك :

آلت أمور الشُّرك شرٌّ مأل وأقرَّ بعد تخمَّط وخيال  
(النخبط : التكبر)

غضب الخليفة للخلافة غضبة رخصت لها المهجات وهي غوال  
فلازريجان اختيال بعد ما كانت معرَّس عبدة ونسكال  
أطلقتها من كيده وكأنا كانت له معقولة بعقال

يا يوم أُرشق كنت رشق منية للخرميَّة صائب الآجال  
أسرى بنو الاسلام فيه وأولجوا بقلوب أسد في صدور رجال  
ما طال بغي قط إلا غادرت غلواؤه الأعمار غير طوال  
فاسلم أمير المؤمنين لامة أبدلتها الإمراع بالإحمال  
أمسى بك الاسلام بدرأ بعد ما مُحقت بشاشته محاق هلال  
ألْبستهُ أيامك الغر التي أيامُ غيرك عندهنَّ ليال  
هذا سوى مدائح خصه بها ، أطنب فيها وأشاد .

\*

ويخلف الواثق المعتصم عام وفاته سنة ٢٢٧ فينهض إليه أبو تمام يهنئه ويعزيه بأبيه :  
ما للدموع تروم كل مرام والجفن ثاكل هجعة ومنام



يا تربة المعصوم تُربك مودع ماء الحياة وقاتل الإعدام  
هدمت صروف الدهر أطول حائط ضربت دعاؤه على الإسلام  
مادام هارون الخليفة فالهـدى في غبطة موصولة بدوام  
إننا رحلنا واثقين بوائق بالله شمس ضحى وبدر تمام  
ما أحسب القمر المنير إذا بدا بدرأ بأضوأ منك في الأوهام  
إن الخلافة أصبحت حجراتها ضربت على ضخم العطاء هام  
وغير المأمون والمعتمد والوائق أمراء ووزراء وقواد وسادة ، أكاد أحصي منهم  
ثلاثين ؛ منهم أحمد بن المعتصم ، وخالد بن يزيد الشيباني ، والحسن بن سهل ، وأبو سعيد  
الثغري ، وابنا وهب : الحسن وسليمان ، ومحمد بن الهيثم ، وأحمد بن أبي دواد ، والرافعي  
موسى بن ابراهيم .  
قال في بعضهم ، مادحاً ومعاتباً ما يُرَبِّي على الأربعين قصيدة ، وأظنه أبا سعيد الثغري .  
وفرق الباقي من مدائحه بين بقيتهم وفق ميله وهواه .

\*

ثم هو بعد هذا له مرثية التي لم يبخل بها على الكثرة ممن وصلته بهم صلة .  
وتحيي بعد مرثية أهاجيه ، وما بنا حاجة إلى أن نقف عندها طويلاً . وما يعنيننا منها  
أن الرجل مدح من هجا ، وهجا بعض من مدح ، وما هو بمُأَيَّم . وحياة كل انسان  
حافلة بمثل هذا ، وأبو تمام منا معشر الناس . ولكنه من النفر المحدود عليهم كلماتهم .  
وقد كان في مكنته أن يمضي دون هذا ، فيحبس مديحه عن هجا ، وهجاءه عن مدح ،  
ولكنه لم يفعل .

وقد مرَّ بك حديث أبياته في إحراق الأفشين ، ويجمل بنا أن نورد لك بعض قوله  
في مدحه :

بذَّ الجِلاد البُذَّ فهو دفينُ ما إن به إلاَّ الوحوش قطينُ  
( البذ : موضع )

لم يقر هذا السيف هذا الصبر في هيجاء إلاَّ عزَّ هذا الدين



قد كان عذرة مغرب فافتضها      بالسيف فلل المشرق الافشين  
ما نال ما قد نال فرعون ولا      هاما في الدنيا ولا قارون  
فليشكر الاسلام ما اوليته      والله عنه بالوفاء ضمين  
وان لم يكن قد مر بك شيء مما مدح به مالك بن طوق ، فسنذكره هنا بقوله فيه :  
يا مالك ابن المالكين ولم تزل      تدعى ليومي فائل وعقاب  
كي نعقب عليه بهجائه له :

فرحلت منقطع القرينة لم      أراع على رسم ولا طلل  
متمسكا من مالك بقوى      ضعفت وسائلها عن الأمل  
فلا غرين به سوائم سر      ح الشعر من رجز ومن رمل  
متوجها لهجائه أبداً      وهجاؤه أمر علي ولي  
هذا مالك ، ولا يبي تمام فيه أكثر من خمس مداح . وثم رجل آخر نختم به حديث  
الهجاء لا الحديث عن أبي تمام ، هو عياش بن لميعة ، فقد قال فيه يمدحه :  
رأيت لعياش خلأق لم تكن      لتكمل إلا في الباب المهذب  
له كرم لو كان في الماء لم يغض      وفي البرق ما شام امرؤ برق خلب  
وقال فيه :

لي حرمة بك أضحي حق نازلها      وقفاً عليك فدتك النفس محبوسا  
كم دعوة لي إذا مكروهة نزلت      واستفحل الخطب يا عياش يا عيسى  
لله أفعال عياش وشيمته      تزيد كرم إن ساس أو سيسا  
ثم يتنكر له فتسمع إليه يقول :

ستعلم يا عياش إن كنت تعلم      فتندم إن خلأك جهلك تندم  
أبي لك أن تأبى الخازي كلها      أب أندرمني وجد معلم  
وقمت عليك الظن حتى كأنما      لديك الغنى أو ليس في الأرض درهم  
ويقول فيه :

صدق مقالته إن قال مجتهداً      لا والريغيف فذاك البر من قسمه



وإن هممت به فافتك بخبزته فإنها قطعة من لحمه ودمه

\*\*\*

ثم يموت أبو تمام ، ويموت بعده الواثق بعام . وينهض بالأمر المتوكل ، فيخلو به  
البحري خمسة عشر عاماً ، هي سنو حكمه ، مادحاً ، ويكادون يحصون له في ذلك أربعاً  
وعشرين قصيدة ، جُلسها من المطولات ، هذا عدا مرثية لم ينس في آخرها أن يهيب لصلته  
بمن سيخلفه في قوله :

وإني لأرجو أن ترد أموركم إلى خلف من شخصه لا يغادره  
مقلب آراء تخاف أناته إذا الأخرق العجلان خيفت بواده

\*

ويخلف المستنصر أباه المقتول . ولكن النائرين بأبيه لم يمهله إلا ريثما يُعدّونها له  
شربة مسمومة . فمات بها . وما أنيس بالحكم غير أشهر ستة . وقد وجدنا للبحري فيه  
قصيدته التي يقول له فيها :

تبسم عن واضح ذي أثر وتتنظر من فتر ذي حور  
ولما اذهمت دياجيرها تبلج فيها مكان القمر  
بحزم يجلي الدجى والعمى وعزم يُقيم الصغا والصمر  
(الصفا : الميل . والصمر : ميل في الوجه)

ولكننا نجده يتخلف عن رثائه . ونجده يمدح المستعين بعده ولا يشير إلى المنتصر  
وما ناله ، في قليل ولا كثير . بل نراه يقول للمستعين :

بقيت مسلماً للمسلمينا وعشت خليفة لله فينا  
فقد أنسيتنا بذلاً وعدلاً أبوتك الهداة الراشدين  
أراد الله أن تبقى معانا فقدّر أن تُسمي مستعينا

وتبلغ مدائحهم فيه الأربع ، وتقصر حتى تكاد القصيدة تُعد أياتها دون العشرة  
ويشغب الموالى على المستعين ، فيشتري منهم حياته بنزوله عن الملك لأخيه المعتر بعد  
سنين ثلاث وبضعة أشهر . ويحمل المعتر العبء محتالاً في تديره . ويمد يد الصفع لمن



أساءوا الى أخيه . وعلى البحري أن يَحْتال هو الآخر ، فالمستعين لم يمت ، ولكن الأمر  
خرج من يده ، والخليفة الجديد يده في يد أعدائه ، حيلة منه أو رأياً رآه . فإذا يقول  
البحري وهو القائل أمس ما مرّ بك . اسمع اليه وهو يقول للمعتر :

ألا هل أتاها أن مظامة الدُّجى      تجأت وأن العيش سهّل جانبه  
وأنا رددنا المستعار مذهباً      على أهله واستأنف الحق صاحبه

يريد بالمستعار : المستعين . ولكن أتركه عند هذه أم يزيد من فضله ؟ هذا ما  
سيتجلى لك في قوله :

متى أمّل الذيّال أن تُصطفى له      عرى التاج أو تُثنى عليه عصائبه  
فكيف ادّعى حق الخلافة غاصبٌ      حوى دونه إرث النبي أقاربُه  
بكي المنبر الشرقي إذ خار فوقه      على الناس ثورٌ قد تدلت غباغه  
وما نريد أن نحزن النفوس الوفية ، فنضم الى هذا غيره .

\*

وينتهي أمر المعتر على ما انتهى اليه أمر أخيه من قبل فيعزل ، ثم يراد به الشر  
فيقتل ، ويضطلع بهذا العبء المهتدي . فلا يلتفت البحري الى رثائه ويتجه للمهتدي يقول :

بارك الله للخليفة في الملك الذي حازه له المقدار  
رُتبة من خلافة الله قد طالت بها رقة له وانتظار  
طلبتُه فقراً إليه وما كان له بها ساعة إليها اقتدار  
علم الله سيرة المهتدي بالله فاختاره لما يختار

\*

ويشاء الله أن يقضي المهتدي مقتولاً هو الآخر ، وينهض المعتمد بالأمر ، فيخرج  
علينا البحري في ثياب المهني ، وما لبس للحداد ثوبه ، فيقول :

لقد أمسك الله الخلافة بعد ما      وهت وتلافى سربها أن ينفرا  
بمعتمدٍ فيها على الله أسندت      إليه فألفته الرضى المتخيّرا  
ولما بدا من سُدّة الملك طالماً      ذكرنا به خير الخلائق جعفرا



وغير الملوكة مدح السحري فاطال . وخص بعضهم بأكثر من مدحة . وكان ذلك شأنه مع ابن المدبر وابن ثوبة وغيرها .

وفعل فعلة أبي تمام فالتقى مدحه وهجاؤه عند بعض من قال فيهم . ويحضرني شاهدي على ذلك قوله في ابن ثوبة يمدحه :

|                             |                              |
|-----------------------------|------------------------------|
| أناشد الغيث كي تهمني غواديه | على العقيق وإن أقوت مغنيه    |
| على محل أرى الأيام تضحك عن  | أيامه والليالي عن لياليه     |
| بنو ثوبة أقاراً إذا طلعت    | لم يلبث الليل أن ينجاب داجيه |
| يقفون هدي أبي العباس في سنن | يرضاه سامعه الأقصى ورائيه    |

|                          |                            |
|--------------------------|----------------------------|
| وباخلين سلونا عن طلابهم  | ساوان صبّ تمدى هجر مصبيه   |
| تكفنا عنهم نعمى فتى شرفت | أخلاقه ولما بالعُرف واديه  |
| موقر القدر لم تغض مهابته | ونابه الذكر لم تغضض مساعيه |

ثم قوله فيه يهجوهُ :

|                           |                           |
|---------------------------|---------------------------|
| ترون بلوغ المجد أن ثيابكم | ياوح عليكم حسنُها وبصيصها |
| وليس العلى كدراعة ورداؤها | ولا جبّة موشية وقيصها     |

\*\*\*

هذان هما الشاعران أبو تمام والسحري ، لا ينقصكما عنهما إلا القليل مما يتصل بهما أوردنا . قالاً كثيراً ، ولكن في هم واحد ، هو أن يُعرفا بقدرتهما على القول ، وتجويدهما للعبارة ، وما زرق الله من خيال ، وآتى من سعة أفق .

وقد مضى أبو تمام مبكراً ، وما عاصر غير المأمون والمعتصم من الخلفاء ، ثم تلك الكثرة من السادة والقواد .

وقد رأينا في كل ما صدر عنه جارباً في غير رأيه ، ولا فكرة استقامت عنده عن الحياة التي يعيش فيها . وما عدا أمره عن أن يعيش بعيداً لسانه لكل حادث أو طارئ يقول فيه واصفاً مفصلاً ما كان .



وكذلك كان شأنه مع العادة والقرآن والاصحاب ، مع تفرقة في المنازل والمراتب .  
وعلى قدر برهم به كان شعره فيهم .

وقد ذكرنا لك شيئاً عن المدح ونصيب الشاعر منه في كلمتنا عن الأخطل والفرزدق  
وجريز ، ونرى أن أبا تمام كان الى هؤلاء الثلاثة وأرى عليهم فيما أخذناهم عليه .

\*

وما كان البحرى — كما قلنا في البدء — غير صدى لابي تمام . جرى في سبيله ولزم  
ما لزمه سلفه . وقد يكون في مضي أبي تمام عجباً لا ما يجعلنا معه مترقبين عاذرين ، وإن  
كانت الأربعون غير قليلة على السابقين ليعجموا عود الحياة وينفذوا الى ما تنطوي عليه .  
فيكون لهم معها رأي وتوجيه .

ولكن ما عُدنا للبحري وقد بلغ من العمر أرذله . وشُغلت الدولة أيامه بمحوادث  
جسام . أقساها ذلك الشعب الذي استطاعت اليه فيه الى الموك ، نعرف أن الموالي الذين  
جلبهم المعتصم كانوا نواة هذا الشر . ولكن هذا وإن كان أكثر الشر فليس كله .  
فالأمور تشير الى أن سياسة الدولة كانت في اضطراب ، وأن الفساد كعب بأموالها .

فأين كان شاعرنا ؟ هو في شغل عن الحديث عن هذا بمدح ينال به رضى وجاهاً ،  
وهجاء يخوف به خصومه ، ويشفي حسية نفسه .

\*

وما أحب أن أختم الحديث عن البحرى دون أن أقول إن تخطيطه في هذا الواجب  
وكان بملكه ، يقفه غير بعيد مع الذين أساءوا وأثموا . وهل لا ترى الائتم فيمن يرى  
الموالي الذين زعزعوا أركان الدولة يوماً أعداء فيقول فيهم :

ولو كان سيفي ساعة التفتك في يدي      درى الفاتك العجلان كيف أساوره  
ثم يخيم ويحجن حين يرى أمرهم استشرى فيزلف إليهم غير ناطق عن دين :  
فيقول :

أما الموالي جنسد الله جمالمهم      إن ينصروك فقد قاموا بما احتملوا  
بقاؤهم عصمة الدنيا وعزهم      ستر على بيضة الاسلام منسدل



ردوا المَعار وتابوا عن خطيئتهم فيه إلى الله والائِتم الذي فعلوا  
خطيئة لم تكن بدعاً ولا عجباً قد خطئت أنبياء الله والرسل

\*

اللهم هذا ضرب من الشعراء، يُراد أحدهم على القول فيقول، ويؤجر للامر وضده  
فلا يجد حرجاً، ما دام يملك بيانه أن يصور الباطل حقاً والحق باطلاً. وما أحسب  
أعماً تشول كفتها ويضطرب نظام الأمر فيها بغير هؤلاء الذي يؤمنون بغير ما يقولون،  
أو لا يملكون مع الايمان شجاعة على القول والافصاح.





## المتنبي

٣٠٣ — ٣٥٤

إن شئت أن نذكر كرك به ، فهو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي .  
حمل أبوه الماء للناس في الكوفة ، لحلة بها اسمها كندة . وُلد بها المتنبي فعرف بها  
ف قيل له : الكندي .

وكان الغلام على فطنة ، والاب على أهبة ، فغشي القتي مجالس العلماء ، ويحدوه ميسله .  
ويعينه عون أبيه الى أن أفاد ما أراد ، وأضَبَّ على ما أحب .

أما عهده فهو ما تعرف ، خلافة عليمة تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وولاية نهازون  
غنَّامون اقتطعوا لأنفسهم ما هم عليه ، فشَتَّ الأمر بعد التئام ، ووهنت الحال في هذا  
الانقسام . ونشطت للإسماعيلية دعوة ، وهبَّت للقرامطة ثورة . فأحيط بالدولة من كل  
مكان ، وتوالت عليها النذر . وأن أن ينهار ذلك البناء الشامخ الذي طاول العلياء فطالها .  
قد أومن أن تلك الدولة التي أظلمها يوماً علَم واحد ، وغبرت دهرًا يدبّر سياستها  
البيت العباسي . كان من الخير أن تعيش ، لكل ناحية منها استقلالها بأمورها ، لها ملكها  
أو رئيسها ، ويدها سياستها ونظامها ، وهي بأخيرة تجتمع مع هذا البيت أو غيره على أمر  
يكفل لتلك الأمم والدول القوة والشوكة ، فلا تضار ناحية في غفلة عن الأخرى ، ولا يراد  
بطرف سوء إلا كانت الأطراف الأخرى في عونته وتجدته .

ولكن الذي لا أومن به أن تنحل هذه العقدة المستمرة إلى قوَى واهية ضعيفة  
لا اتصال بينها ، ولا تملك إحداها أن تصمد لعدوان ، أو تقف لأهون المغيرين شأناً .  
وهي مع هذا تأتي إلا أن تحيا على غير صلة وضامّة .



ذاك حديث لا تعدد على تنمة مسدود وفرجة مكروب ، ولكي أردته وأردت رأيي فيه لا ناقش المتنبي الحساب في حدوده .

\*\*\*

صدق أو كذب تنبي المتنبي ، ودعوته تترأ من فتیان الكوفة الى الإيمان به نبياً . فقد دخل الفنى السجن على منكرة شاعت له ، هي عندي نزوة دينية ، أو أشبه بتلك التي تملك رؤوس اليافعين مستهل حياتهم الفكرية فتكون مرة خروجاً على القواعد ، ومرة جحوداً للعقائد . أما أنها كانت عند المتنبي نزوة ، وأن معجزتها كانت تلك الآيات الملهمة النسخ التي حفظوها له « والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ، لمض على سننك واقف أتر من قلبك من المرسلين ، فإن الله قابع بك زيف من ألد في دينه . وضل عن سبيله » فذلك ما لا يليق بعقل ، سيما وأن القوم عرب ، وأن المعجزة شيء أريد محاكاة القرآن

ونحن إذ نذكر له هذه نريد أن نعرفك به فتى غير الفتیان ، يملك أن يقول وأن يدعو لما يقول . وكانت أولى ظواهر تلك النفس . ولكنه ما ضمه السجن حتى برأ مما فعل . وقال يستعطف الوالي :

|                         |                         |
|-------------------------|-------------------------|
| دعوتك لما براني البلاء  | وأوهن رجلي ثقل الحديد   |
| وقد كان مشيها في النعال | فقد صار مشيها في القيود |
| تجمل في وجوب الحدود     | وحدي قسبل وجوب السجود   |

( أي انه ما تجب عليه الصلاة فجب عليه الحد )

فدلنا على مدى صبره على أمره وجلده لما يحمل .

\*

وبعد ، فقد رأى المتنبي أن يبدأ حياته شاعراً مع الشعراء ، فهم يقصدون الملوك والأمراء . ويألفون بالبلطات ، فليصل حبله بمن أحب . فراح منهم كثرة . وكان فيمن اتسل به معاذ بن جبل في اللادقية . ولكنه ما فتى أن برم به فرحل عنه الى سيف الدولة ابن حمدان .



وكان يساب هذا الملك الحلبي جهمرة من الشعراء اختص بهم ، منهم أبو فراس ،  
والسري الرفاء ، والنائي ، والبغاء ، والوأواء .

هنا استقرت تلك النفس الوثابة حيناً من الدهر تصبح وتسمى لربها سيف الدولة  
حامدة شاكرة ، في كل أوبة وروحة ، وقومة وقعدة . وما يزيد أن نذكر كثيراً ، فنلت  
الديوان لابن حمدان ، وإليك شيئاً من ذلك . فهذا قوله يهنئه بعيد الأضحى :

هو البحر غص فيه اذا كان ساكناً      على الدر واحذره اذا كان مزبداً  
تظل ملوك الأرض خاشعة له      تفارقه هلكي وتلقاه سجداً  
وتحيي له المال الصوارم والقنا      ويقتل ما تحيي التبسّم والجداً  
هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده      وعيد لن سمي وضحي وعيدا  
ولا زالت الأعياد لبسك بعده      تسلم غروراً وتسعطى مجدداً  
ثم يذكر نفسه فيستنصره على حساده :

أزل حسد الحساد عني بكتبهم      فأنت الذي صيرتهم لي حسداً  
إذا شدّ زندي حسن رأيك فيهم      ضربت بسيف يقطع الهام مفعداً  
أجزي إذا أنشدت شعراً فأبنا      بشعري أذاك المادحون مردداً  
ودع كل صوت غير صوتي فأبني      أنا الطائر المحكي والآخر الصدى  
وقيدت نفسي في ذراك محبة      ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا  
إذا سأل الإنسان أيامه الغنى      وكنت على بُعد جعلناك موعداً

هذا قليل يدل على كثيره . كان هم الشاعر في كله أن يستخلص الممدوح لنفسه ، ليجتمع  
إليه خيره ، أثره منه أو وثبة — إن شئت سميتها — أو إطموحاً

ويجد المتنبّي على سيف الدولة لأنه لم يكن معه على ابن خالويه فيتركه الى دمشق ثم الى  
مصر حيث كافور الإخشيدي .

وكان كافور — وهو من تعلم — حريص على أن يضم بلاطه ما تضمه البلاطات ، وأن  
يرى بين يديه صفوة من الشعراء يقولون فيه فيشيع له كما شاع لغيره .



وأحب ألا أمضي عن هذه دون أن أفتك الى ما قدّر به الملوكة الشعراء ، فقد رأوا  
فيهم شيئاً يحملون به ، فكما يجلب الملك اليه المختار من الرياش يبدو فيه قصره رائقاً ،  
فتجري به الاحدوثة المستطابة ، كذلك عليه أن يضم اليه تلك الأبقاق الناطقة ، وعليه  
أن ينتقي أعذبها صوتاً وأقدرها صوغاً . فإن فعل فهو آمن أن تسحط به على الجوزاء ،  
ما ملك معيناً من ذهب ويداً كريمة سخية .

ويحل المتنبى بساحة كافور ، وهو يطعم في الكثير ، فكافور راغب فيه ، ثم هو واثب  
على المسلك فنتزع من ابن سيده بعد أن سقاه السم . فرجأ هنا المتنبى ما لم يرجه عند سيف  
الدولة وظن بالأيام خيراً ، وبدأ يبيع ليشتري ، ويعطي ليأخذ ، ومدح كافوراً بقصائد  
منها قوله :

|                                    |                                 |
|------------------------------------|---------------------------------|
| أقبل اشتياقاً أيها القلب ربما      | رأيتك تصفي الود من ليس صامتا    |
| خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبي      | لفارقت شيبي موجع القلب باكيا    |
| ولكن بالنسقاط بحرأ أزرته           | حياتي ونصحي والهوى والقوافيا    |
| وجرداً مددنا بين آذانها القنا      | فتن خفافاً يتبعن العواليا       |
| تجادب فرسان الصباح أعنة            | كأن على الأعناق منها أفاعيا     |
| قواصد كافور توارك غيره             | ومن قصد البحر استقل السواقيا    |
| جاءت بنا إنسان عين زمانه           | وخلت بياضاً خلفها وماقيا        |
| أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً | إليه ، وذا اليوم الذي كنت راجيا |
| أبا كل طيب لا أبا المسك وحده       | وكل سحاب لا أخص الغوادي         |
| يُبدل بمعنى واحد كل فاخر           | وقد جمع الرحمن فيك المعانيا     |
| إذا كسب الناس المعالي بالندی       | فإنك تعطي في نذاك المعاليا      |

ويكشف له عن بعض أطماعه عنده فيقول :

|                              |                             |
|------------------------------|-----------------------------|
| وغير كثير أن يزورك راجل      | فيرجع ملكاً للمراقين واليا  |
| فقد تهب الجيش الذي جاء غازيا | لسائلك الفرد الذي جاء حافيا |



وبغير هذه مدح المتنبي كافوراً، ولبت يسأل وكافور يمثل . ولم يجد الأمور الى  
خير، فخرج عنه هارباً، وأرسل كافور في طلبه فلم يدركه . وكأنه عز عليه أن يقول في  
كافور ما قال أو أن يخيب ظنه ويسوء تقديره ويرجع بصفقة المغبون، فاهتمت نفسه،  
فقال بهجوه، وكان يوم ارتحل يوم عرفة :

|                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| عيداً بأية حالٍ عدتَ يا عيد   | بما مضى أم لأمرك فيك تجديد    |
| أما الأحبة فالبيداء دونهم     | ياليت دونك يبدأ دونها بيد     |
| يا ساقياً آخر في كؤوسكما      | أم في كؤوسكما هم وتسهيد       |
| أصخرة أنا مالي لا تحركني      | هذي المدام ولا هذي الأغاريد   |
| إني نزلت بكذا بين ضيفهم       | من القرى وعن الترحال محدود    |
| جود الرجال من الأيدي وجودهم   | من اللسان فلا كانوا ولا الجود |
| لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم | إلا وفي يده من تنفها عود      |
| أكلما اغتال عبدُ السوء سيده   | أو خانة فله في مصر تمهيد      |
| صار الخصى إمام الآبقين بها    | فالحر مستعبد والعبد معبود     |
| نامت نواطير مصر عن تعالها     | فقد بَشَمَن وما تفتى العناقيد |
| العبد ليس لحرٍّ صالحٌ بأخ     | لو أنه في ثياب الحر مولود     |
| لا تشتري العبد إلا والعصا معه | إن العبيد لأنجاس مناكيد       |
| ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن    | يسيء بي فيه عبدٌ وهو محمود    |

\*

ولم ينزل المتنبي حلب أئمة منه أن يعود الى سيف الدولة عن غير دعوة أو شيء آخر،  
فقصد بغداد ومكث فيها حيناً تركها بعده الى ابن العميد وزير ركن الدولة . ولبت في  
ظله يمدحه ويثني عليه .

حتى اذا ما دماه عند الدولة يستزيده، ودّع الشاعر هذا الى ذاك، حيث الأمل أقوى  
والرجاء أشد . وقد نال المتنبي عنده كثيراً فدحه وأطنب . ولكنه أتم العودة الى بغداد



وفيما هو عائد اليها كان مقتله عند دير العاقول ، بالقرب من النعمانية

\*\*\*

كن أنت الشاعر وسلّ الأيام أن ترجع بك الى تلك الفترة ، أو أن تنقل تلك الفترة بما فيها اليك وحدثنا حديثك . كأنني بك تلقى اليّ :

لا بارك الله لي في لسان ولا قول إن لم أجردهما لتقويم المعوج من تلك الحياة اثني لم تطلع لها شمس إلا على انهيار ، ولم تغيب إلا على مثله .

ومالي أكّد ذهني وأجهد مقولي في إطراء أو هجاء ، لغنم أريده ، وأمل أنشده ، والمجتمع من حولي يعوزه كلمة ويتطلع الى داعية . ومالي يغريني الذهب وتستنهضني المناصب والمجتمع من حولي أغنى وأبقى .

وأيّن ما يذكّرني الناس به من شمم ، وقد وفدت على كافور طامعاً ، ومدحته كاذباً . وأيّن الشمم من نفس تستهويها الدعوة ذات المتاع فتعجز ابن العميد إلى عضد الدولة . ليقول الناس إن المتنبي شاعر ، ولكنهم لن يقووا على أن يقولوا أنه حمل عبئه في الحياة لذلك المجتمع الذي يعيش بينه ، فأشار هنا ونصح هناك . ولكنه جرى وراء حظه يريد أن يدركه كاملاً .

ويبقى له ما صدر من أبيات جرت مجرى الحكم ، صدرت عنه في بعض ما أُلّم ، فلمعت في النفوس صقلاً وتهدياً .

وهذا شيء نرغب في الكثير منه لحماية الأنفس من الزلل . ولكنه إلى جانب ما كنا نرجوه من المتنبي قليل .

لقد نبت المتنبي حيث الكثرة من الناس يعيشون لأنفسهم ، يثب الطامعون من الولاة والجند الى ما يطعمون فيه ، فينالون في غير خوف ولا حذر . فعاش المتنبي لما عاشوا له ، ينتصر بلسانه ويبغيه سلاحه ، الى ما يريد ، فخانه الجند وفقد الكثير من السياسة .

هذا هو المتنبي الطامع ، وما عليه اذا كان غير شاعر ، أو قل اذا كان شاعراً غير

رسالة .



أما رسالته فما نحن الى تبينها وتحديدها، ولكننا جهدنا أن نرى من شعره شيئاً يلتفت فيه الى ما حوله مما لا يعنيه، ولكن يعني الأمة التي هو منها، فلم نجده.

وفي بعض ما هجا به كافوراً شيء من هذا الرأي، لو أنه صدر عنه لغير مرة وثأر، ثم في بعض حكمه شيء آخر ولكنه كان يريد نفسه. ولو أنه لم يضيق بما ناله. تُرى أكان يضيق بما نال الناس فيقول؟

نريد أن يحمي الشاعر نفسه عن التبذل، ونريد أن تكون الببئة التي يعيش فيها الشاعر هي أفقه، يعنيه أمرها، إن خيراً وإن شراً، فيلتفت إليها جاهداً فيما ينهض بها، ونريده بعد ذلك شجاعاً جريئاً لا يهاب شيئاً.





## أَبُو الْعَلَاءِ الْمُعَرِّي

وُلِدَ أَبُو الْعَلَاءِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بِمَعْرَةَ النِّعْمَانِ — مِنْ أَعْمَالِ حَلَبَ — سَنَةَ ٣٦٣ هـ  
وَكُفَّ بَصَرَهُ عَنْ عِلَّةٍ ، لَمْ تَكُنْ غَيْرَ الْجَدْرِيِّ ، سَنَةَ ٣٦٧ هـ  
وَكَانَتْ لَهُ إِلَى بَغْدَادَ رَحْلَةٌ سَنَةَ ٣٩٨ هـ ، وَمِنْهَا عَوْدَةٌ ، وَمَا جَاوَزَ مَكْنَهُ فِيهَا سَنَةً  
وَسَبْعَةَ أَشْهُرَ .

ثُمَّ لَزِمَ الْمَعْرَةَ لَمْ يَبْرَحْهَا ، وَضَمَّهُ مَنَزْلَهُ إِلَى أَنْ خَرَجَ مِنْهُ مَحْمُولًا إِلَى رَمْسِهِ سَنَةَ ٤٤٩ هـ  
وَكَانَ لِلرَّجُلِ رَأْيٌ فِي الْحَيَاةِ تَعْرِفُهُ . فَقَدْ عَاشَ نَبَاتِيًّا زَاهِدًا قَانِعًا بِالْيُسْرِ عَمْرًا يَقْدِرُهُ  
مَنْ أَدْرَكَهُ بِخَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً .

وَتَضَطَّرَبَ الرِّوَايَةُ عَنْ دِينَ أَبِي الْعَلَاءِ ، فَهُوَ شَاكٌّ أَوْ مُلْحَدٌ هُنَا ، مُؤْمِنٌ نَتِجِي  
السَّرِيرَةِ هُنَاكَ .

هَذَا مَا نَزِيدُهُ لَكَ الْآنَ عَنْهُ . أَمَّا عَصْرُهُ فَمَا هَدَأَتْ أَضْطِرَابَاتُهُ . وَقَدْ عَرَفْتَ حَلَبَ  
الْجُذَانِيِّينَ وَالْفَاطِمِيِّينَ وَالرُّومَ ، وَدَاسَتْ جِيُوشُهُمْ أَرْضَهَا ، غَازِيَةً مَغْزُوزَةً . مَا ذَاقَتْ حَلَبَ  
وَمَا حَوَالِيهَا خِلَالَ ذَلِكَ طَمَأْنِينَةً وَلَا دَعَةً .

وَإِلَيْكَ تِلْكَ الْكَلِمَةُ نَنْقُلُهَا عَنْ ابْنِ الْعَدِيمِ مِثْلًا مِمَّا كَانَ . قَالَ : « سَنَةَ ثَمَانٍ عَشْرَةَ  
وَأَرْبَعِينَ . فِيهَا وَصَلَ الْأَمِيرُ أَسَدُ الدَّوْلَةِ صَالِحُ بْنُ مُرْدَاسٍ إِلَى حَلَبَ . وَأَمْرٌ بِاعْتِقَالِ  
مُشَاحِجِ الْمَعْرَةِ وَأُمَائِلِهَا . فَاعْتَقَلَ سَبْعُونَ رَجُلًا فِي مَحْبَسِ الْحَصَنِ سَبْعِينَ يَوْمًا . وَذَلِكَ بَعْدَ  
عِيدِ الْفِطْرِ بِأَيَّامَ . وَكَانَ أَسَدُ الدَّوْلَةِ غَيْرَ مُؤَثِّرٍ لَذَلِكَ . وَإِنَّمَا خَلَبَ تَادِرْسَ عَلَى رَأْيِهِ ، وَكَانَ  
يُوهَمُهُ أَنَّهُ يَقِيمُ عَلَيْهِمُ الْهَيْبَةَ . وَلَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّهُ خَاطَبَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ : أَقْتُلِ الْمُهَذَّبَ  
وَأَبَا الْمَجْدِ — يَعْنِي أَخَا أَبِي الْعَلَاءِ — بِسَبَبِ مَا خَوَّرَ ؟ مَا أَفْعَلُ !

وَقَدْ بَلَّغْنِي أَنَّهُ دُعِيَ لَهُمْ فِي آمَدَ وَمِيَا فَارْقِينَ ، وَقُطِعَ عَلَيْهِمْ أَلْفُ دِينَارٍ ، وَاسْتَدْعَى



الشيخ أبا العلاء . فلما حصل عنده في المجلس ، قال له الشيخ أبو العلاء : مولانا السيد  
الأجل أسد الدولة كالسيف القاطع ... فقال صالح : قد وهبتهم لك أيها الشيخ . ثم قال  
أبو العلاء بعد ذلك :

تغيبت في منزلي برهة      ستير العيوب فقيد الحسد  
فلما مضى العمر إلا الأقل      وحُسمٌ لروحي فراق الجسد  
بعثت شفيعاً الى صالح      وذاك من القوم رأي فسد  
فيسمع مني سجع الحمام      وأسمع منه زئير الأسد

\*

وإذا ذكرنا أبا العلاء الشاعر ذكرنا له ديوانيه : سقط الزند ، واللزوم ، كان أولهما  
لشبابه ، والثاني لما بعد ذلك .

وكما كان أولهما أيضاً وصلة بينه وبين الناس ، مدح فيه ورثي وشكر . | كان ثانيهما  
لشيء أسمى من ذلك وأجل . فجعله وصلته الى نفسه ، فتحدث اليها وتحدثت اليه . وهكذا  
جاءت اللزوميات غير السقط .

وقد تحدث الينا أبو العلاء في مقدمة السقط فذكر أنه لم يكن من طلاب الرشد والصلة .  
وفي الحق إنه لم يمدح فيه إلا القليل من الناس صدرَ عمره ، قبل أن يعتزلهم الى  
محبه ، كما أنه لم يمدحهم لعطاء ولا نائل ، وما قبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع .  
ويكاد يصف لك أبو العلاء نفسه في هذه الكلمات : « وأحلف ما سافرت أستكثر من  
النشب ، ولا أتكثر بقاء الرجال . ثم يقول : « ويحسن الله جزاء البغداديين ، فقد  
وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا علي أموالهم عرض  
الجد ، فصادفوني غير جذل بالصفات ، ولا هش الى معروف الأقوام » .

وشيء آخر ، فإن الوزير الفلاحى كتب الى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، متولي  
حلب وأعمالها ، يحمل أبي العلاء الى مصر ، لينبئ له دار علم . وسمح بخراج معرة النعمان  
له في حياته وبعده .

ونهب عزيز الدولة الى معرة النعمان واجتمع بأبي العلاء ، وقرأ عليه كتاب الوزير .



فاستعمله أبو العلاء ، ثم كتب الى الوزير يستعفيه من ذلك ، فأعفاه ، وكان مما قاله :  
 كأنما غانةٌ لي من غنى فعدُّ عن معدن أسوان  
 سرتُ برغمي عن زمان الصبا يمجلي وقتي وأكواني  
 وأخيراً فهذا قوله :

لا أطلب السيب من الناس بل أطلبه من خالق السَّيبِ  
 ويشهد الأول أنني امرؤٌ لي جسد يفرق في عيبي  
 تضرب أضراسي وظني بها التعطيس بالكُدس في جبي  
 وبلي مما أنا فيه وجل الأمر عن ويح وعن ويب

ونحسبنا في غنى عن أن نضع تحت بصرك مثلاً من شعره ، مما قال هنا أو هناك .  
 فقد عاش أبو العلاء لغير ما عاش جل الشعراء له ، وما جرى لما جرى له . وفرغ لنفسه  
 ثم لرايه في الحياة يصوغه شعراً .

فقد حمل أبو العلاء نفساً كبيرة ، ما الى ذلك شك . وصان قوله عن أن يُشتري لسانه  
 عن أن يؤجره ، وما الى ذلك شك أيضاً .

وقد نشدنا مثل ذلك فيمن حدثناك عنهم ، فلم نجد لهم أبوا بلاءه ، ولا عدوا عدوه .  
 وإذا فقد أخذ أبو العلاء نفسه بما يأخذ به أصحاب الرسالات ، وسلك مسلكهم ،  
 ولكن أي رسالة حمل وأدَّى ؟  
 ذلك ما نحب أن نحدثك فيه .

نحن إذ نشد الشاعر ذا رسالة ، لا نلزمه وجهة ولا قصداً . ولكننا نلزمه البعد عما  
 يحيا له الطامعون في جاهٍ ونشب ، ثم نلزمه ألا يسلك بنفسه مسالك الزلل فيعيش مأجوراً ،  
 ونلزمه أن يقول قوله للحق الذي يدين به لا لما يريد به الناس عليه ، ونلزمه أن يرى المتربة  
 في ظل إيمانه بنفسه خيراً من الغنى في ظل إيمانه بالناس .

ذلك أول ما نراه مع الشاعر ذي الرسالة ، أما بعد هذا فقد يرى هو أن من الحق  
 عليه أن يؤدي رسالته في هذا السبيل ونراها نحن في غيره . ذلك شيء نؤمن أن الخلاف  
 فيه بيننا وبين الناس واقع .



وللتفت عن هذا ، حتى لا يطول بنا الأمر ، الى أبي العلاء لئرى أي الرسالتين كانت أولى به . أ تلك التي حملها ، أم أخرى كانت له فصدف عنها ؟

أمّا التي حمل فهي آراؤه وما دعا إليه من رحمة بالحيوان ، وزهد في الحياة ، وشيء آخر لم يُعرف عنه في وضوح . وأما التي لم يحمل فتهيئة النفوس ، وإعداد الخواطر لنهضة اجتماعية يخرج منها قومه الى عزّة وأمن .

ولو سامناه بالاولى ، وقلنا ذلك استعداد النفس وتلك طبيعتها ، فلن ننسى له أنه فقد شيئاً من صفات « الشاعر ذي الرسالة » يكاد يكون خطيراً .

أُتُعرف لم اضطرب الناس في أمره فلم يعرفوا رأيه في وضوح ، وفات الناس أن يلقنوا عنه تعاليم ومبادئ ؟ ذلك لأن أبا العلاء لم يكن شجاعاً جريئاً . ولو أنه رزق هذه لكشف للناس عما يدين ، ولمضى وقد يئس . ولكنه رضي لنفسه هذا ، أو أن الخوف حبس لسانه عن أن يجري بما يدين . ففضى وما أتمّ ما حمل .

ولو رأينا أنه كان للثانية أولى . فأبو العلاء لم يحمل ما يجب له . وأنه أساء الى من حوله إذ شغلهم عن الاهبة بما يكون الشعوب وبينني الأمم ، بالحديث عن أشياء لم تُكشف فيعرف الرأي فيها ، ولم تترك فيرلح الناس الى غيره مما عناهم وأثقلهم ، وكانوا في حاجة معه الى مُبَصِّر يُبَصِّر واحد من الشعراء يجمع الناس وراءه الى حيث الحرية والخلاص .



# خاتمة

الأمور إلى ثلاث : رأس ولسان ويد .  
 فمع الرأس التدبير . ولا نجاح لتدبير إلا إذا رُزق لساناً مُفصّحاً ، يمكن له في  
 الأذهان ، ويُعبّد له السبل إلى القلوب ، وعلى قدر ما توفّق الألسنة من بيان تكون  
 إصاخة المصليخين ، واستجابة المستجيبين .

وباليد تستحيل الفكرة حقيقة ، في حضارات مشيدة ، ونظم مُقامة ، وسياسات تكفل  
 بسطة واسعة وأمناً ورفاهية .

فاذا سلمت هذه الثلاثة سلم كل شيء ، ومضت الأمور إلى خير .  
 وإذا اعتلّ الرأس وسلم اللسان بقي البُسرُ مرجوّاً والسلامة مأمولة . فالألسنة كما هي  
 للأيدي محرّكة ، فهي للرأس مقومة ، بما تدل على مساءة في الرأي ، وتكشف عن عور في  
 التدبير .

في سلامة اللسان السلامة كلها ، وفي علته العطب للجميع . فهو ان اعتلّ مفسدة  
 للتدبير يسيء الحديث عنه ، فيعرفه الناس في غير صورته فلا يرضونه ، ويميل بالأيدي  
 فيصرفها عن نصرته ويجمعها على حربه .

وإنما أردت باللسان القول في لونه : شعره وشره . فما أحقنا بتنشئة الألسنة تنشئة  
 سليمة تضمن في كل ما يصدر عنها الخير والسلامة .

آن أن نعرف للقول شأنه ، وأن نستقصي السبل وتحرّج المناحي في أن نهيه له  
 ما نضمن به ما نريد .

نحن لا زلنا نعرف الأمور بمظاهرها العارضة . فنعرف المعلم في حسن تلقينه ،



والطبيب في يده الآسية، وجرعته الشافية. ونعرف المهندس فيما يشيد فيجيد، ونعرف الصانع فيما يبدع، والزارع فيما ينتج. ونظن أن عند هذا تنتهي رسالاتهم. وما درينا أن على المعلم أن يقتطع للتوجيه من وقته وجهده مثل ما يخص به التلقين، وأن على الطبيب إحياء الروح الصحية في النفوس ودعوة المسؤولين في جهد لا يفتقر إلى إحقاق دعوته. وعلى المهندس أن يرى لأمته ما تظهر به ناهضة حية. وعلى الصانع والزارع أن يرى لهما من نتاج اليد ما يدعم ركناً ويسد نقصاً. فأنت ترى أن الحياة ليست إلى تلك الحركة الآلية تعتمد، بل هناك هذا النوع الذي كشفنا عنه وسميناه رسالات.

أما عن رسالة الشاعر فقد قدمت في هذا الكتيب جمعاً من الشعراء، عرضت لهم عرضاً سريعاً، أردت فيه أن أقول رأياً في ضوء فكري عن الشعر. أما الفكرة فلا أظنني بمخالف عليها. وأما الرأي فهو ما رأيت وقد يرى غيري غيره. وأنا فيما أرى ويرى للناس متفقون على الفكرة في أنه لكل شاعر رسالة، يختلفون إن اختلفنا على الرسالة ولونها. فإذا صح هذا فنحن إلى عودة بنظرة إلى دراسة الأدب جديرون، فالأدب اليوم يدرس لنصوصاً ودراسات.

وأحب أن يُحمَّل درس النصوص جميع ما يتصل بالأسلوب والمعنى، من قوة وضعف، وإجادة وإسفاف. حتى إذا ما استقامت نصوص الشاعر أو الكاتب في الأذهان ووضحت للفكر. جاءت الدراسة فعرضت لبيئة الشاعر عرضاً مفصلاً. فكشفت عن نظام العصر. واتجاه الرأي فيه، وقالت لنا عن مهام المصلحين وما عليهم. وعرفتنا أثر الشاعر ونصيبه ومشاركته في ذلك.

نعم، علينا أن نفعل ذلك لنخلق في الأدب جيلاً جديداً لا تقنع منه بالقول المعسول واللفظ الطيب، بل نطلب منه بعد هذا الرسالة التي بينت شيئاً عنها. والرسالة لا تقوم إلا على شجاعة وثبات ودين. فنحن مطالبون هذا الجيل الذي نريد من الأدباء أن يكون هذا وغيره مما يتصل به جزءاً من رسالتهم.

وأكاد أقول آسياً إن الأدب العربي بُعد كثيراً عن هذا الغرض والتفت إلى التنميق



جهده . وقد ذكرت سبب ذلك صدر هذا الكتيب . وقلت إن النقد هو الذي خلق الأدباء  
هذا الخلق .

ألا فليكن لنا نهج في النقد جديد لنظفر بألوان من الأدب جديد نمكن فيه للأدب  
بأن يتبوأ مكانته ويحل محله .

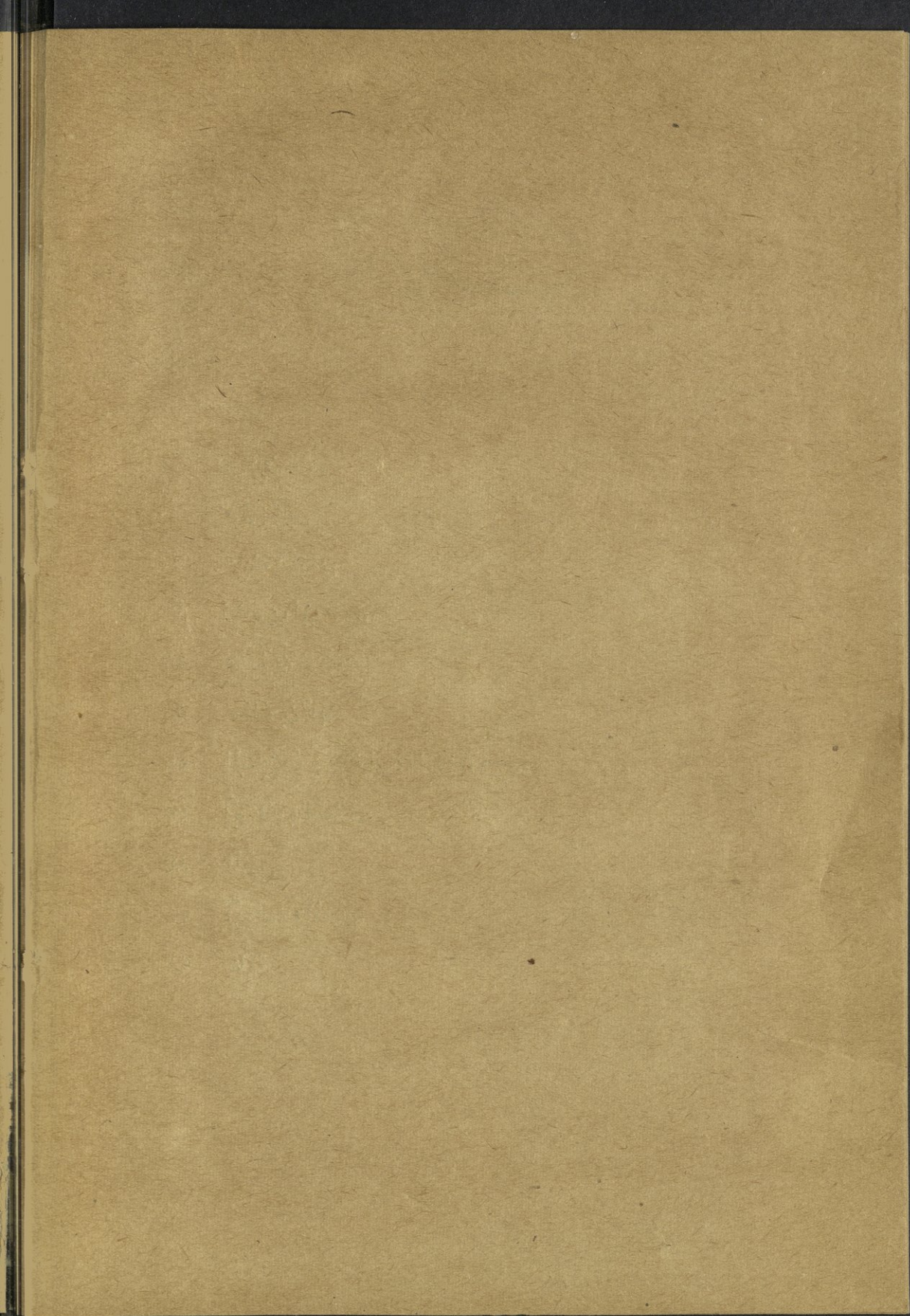
وعند هذا أقف بعد اعتذاري عن أخطاء في الطبع ، وإجمال كنت أرجوه تفصيلاً  
ولكنني إذا ذكرت أن الكُتَيْبُ أكاد أكون أمليته على الطابع ، وأنني لم أملك فسحة  
للإعداد وأخرى للمراجعة ، رجوت إلى القارئ أن يقبل مني العذر ويسأل له ولي التوفيق  
والسلامة .



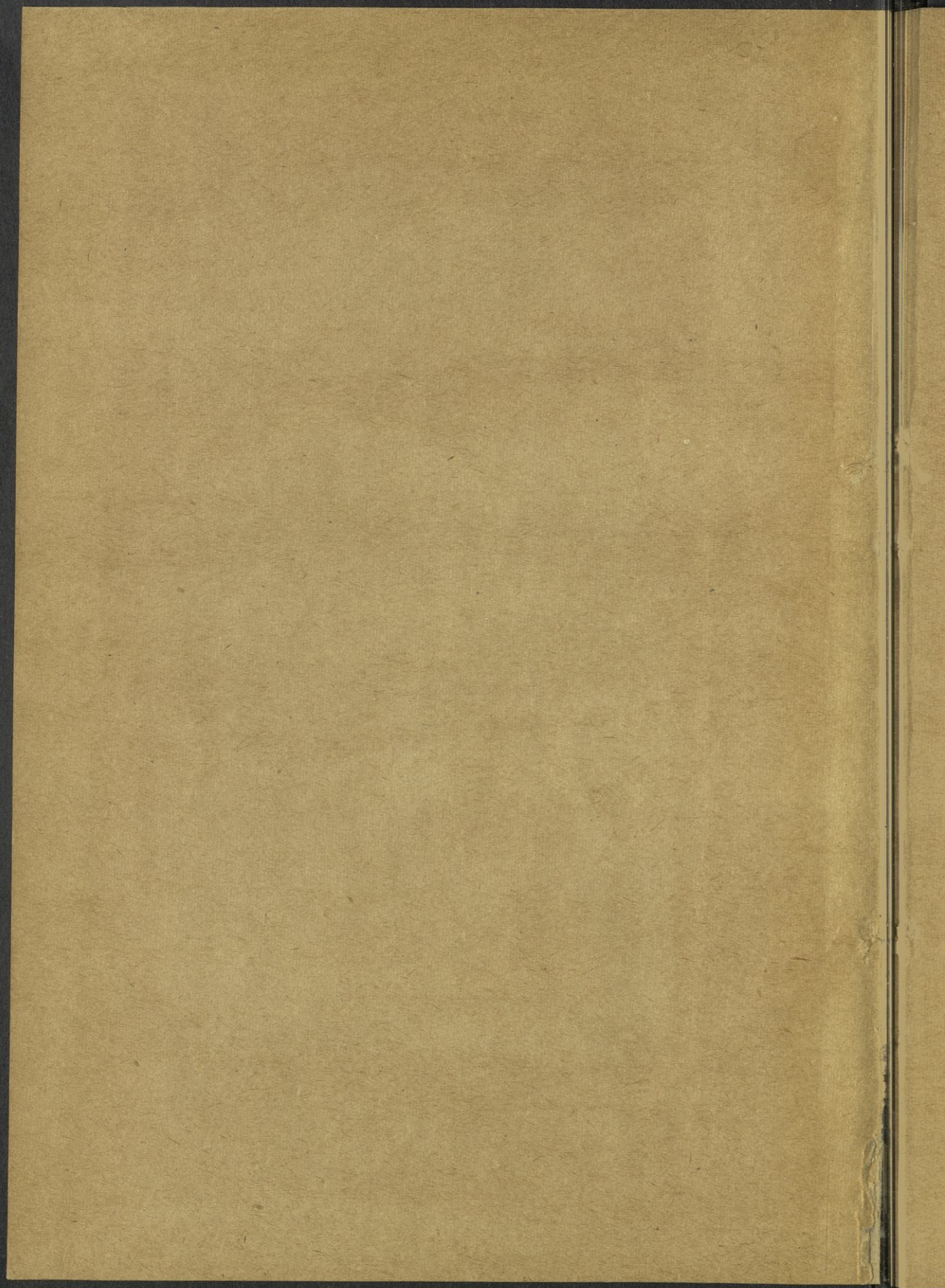
# الفهرست

|                                     |    |
|-------------------------------------|----|
| تقدمة                               | ٣  |
| موازن الشعر                         | ٥  |
| أمرؤ القيس                          | ١٠ |
| النابعة الديبافي                    | ٢٠ |
| زهير بن أبي سلمى                    | ٣٢ |
| عنتر بن شداد                        | ٤١ |
| حسان بن ثابت                        | ٥١ |
| المتنازون : الأخطل ، الفرزدق ، جرير | ٥٧ |
| أبو تمام والبحري                    | ٧٥ |
| المتني                              | ٨٤ |
| أبو العلاء المعري                   | ٧٤ |
| خاتمة                               | ٩٨ |

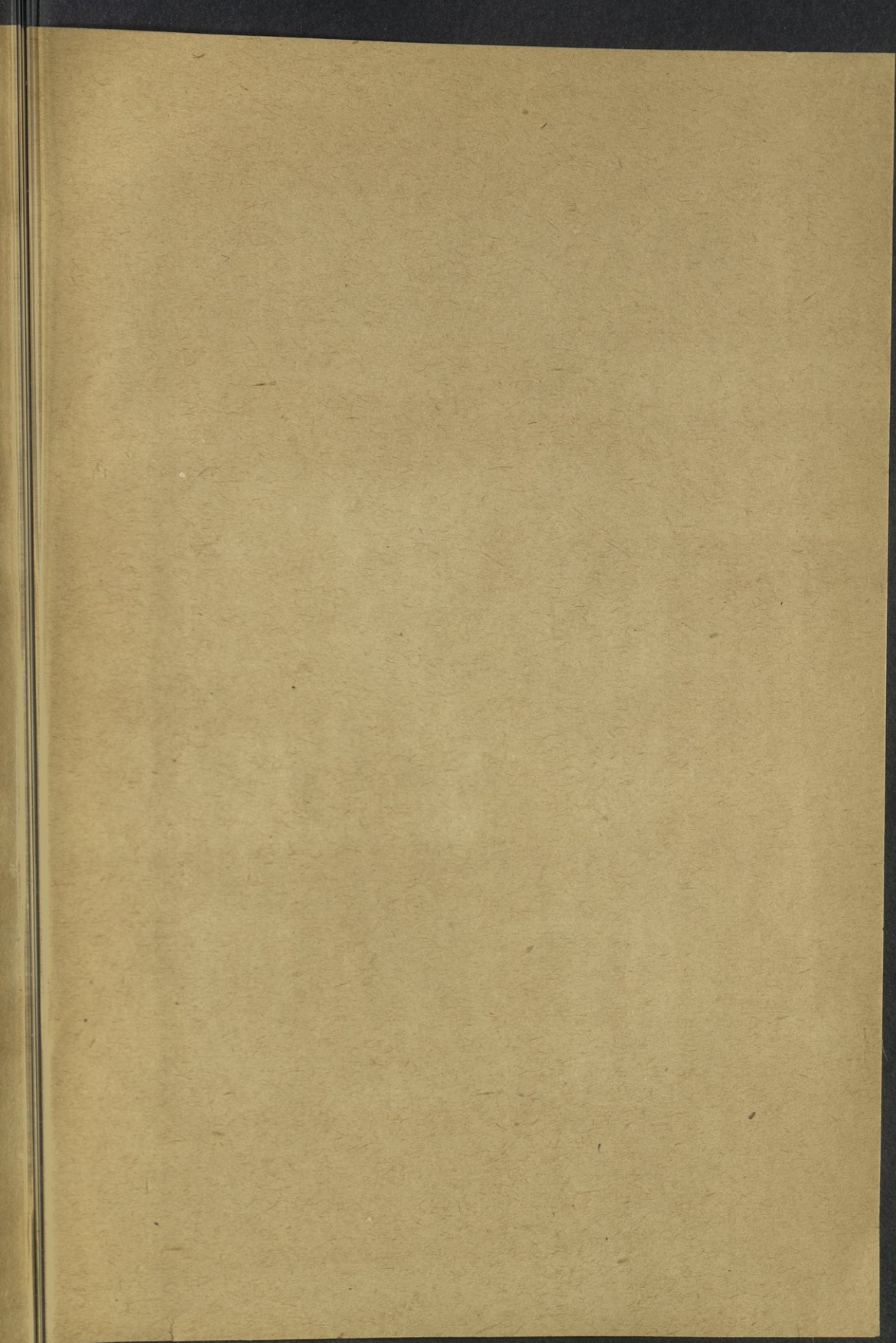




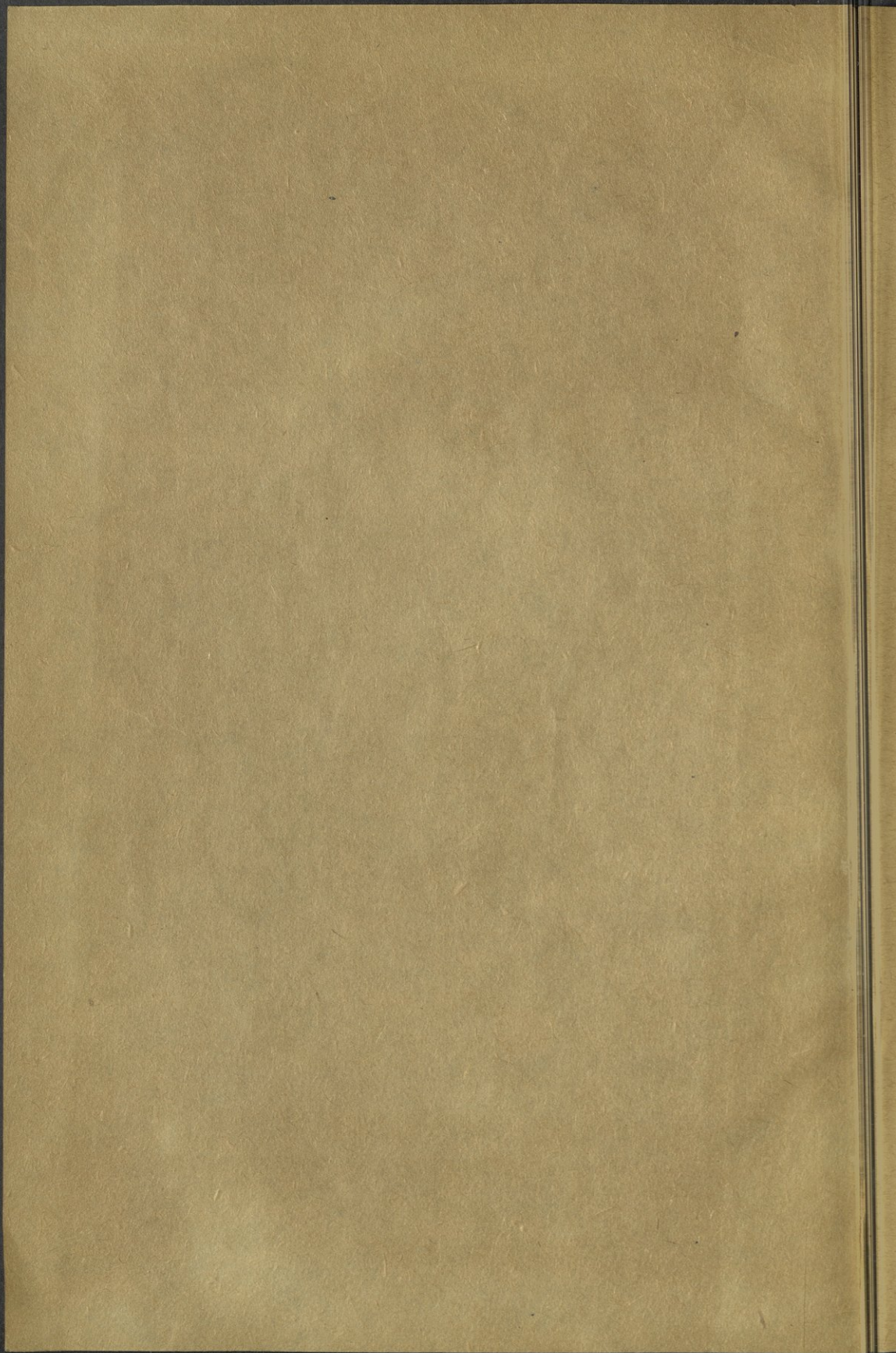




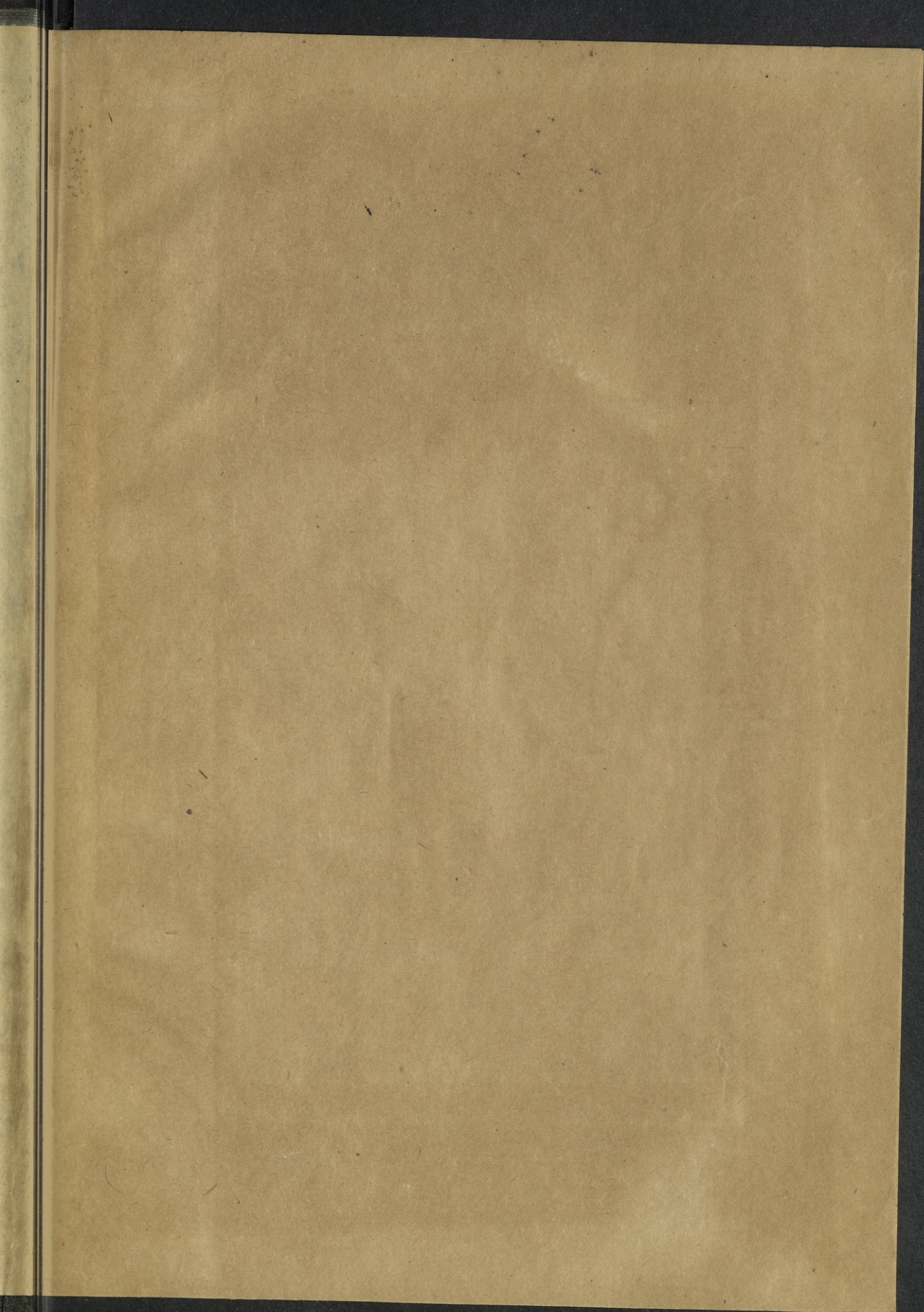












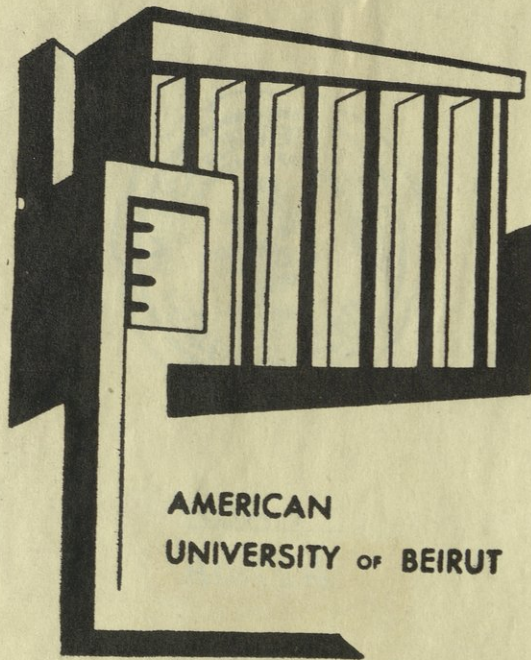


الأبياري، إبراهيم  
رسالة الشاعر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031744



AMERICAN  
UNIVERSITY OF BEIRUT



808.1  
ALPHA